روايات عالمية

مَوعِدٌ مع فِينُوسَ

APPOINTMENT WITH VENUS

إهـــــــداء2006

الدكتورة / امانى عبد الرازق خاطر
الإسكندرية

روايات عالمية

العدد رقم ٤٠٧

موعد مع فينوس

تأليف : جيرارد بايكل

ترجمة : لواء لبيب ميخائيل

الفصل الأول

فى حوالى الساعة التاسعة من صباح اليوم العاشر من شهر يوليه عام ١٩٤٠ ، غادرت احدى السفن الحربية الالمانية مرفأ «سان بيتر» فى «جيرونسى» متخذة طريقها الى جزيرة «ارمورال» الصغيرة ، وفى مقدم السفينة كان الكابتن «هانز وايز» ـ الضابط بالاى البانزر التاسع الالمانى ـ يقف وهو ينظر بامعان نحو الافق البعيد حيث الجزيرة التى ستصبح مقرا له بعد أن تولى ـ للمرة الاولى ـ قيادة قوة منفصلة .

كان فى حوالى الخامسة والاربعين من عمره ، وكان ـ قبل أن يشترك مع القوات الالمانية فى الزحف على بولنـــده ثم بلجيكا وفرنسا ـ يمارس تربية المواشى والدواجن فى وستفاليا ، ولذا فقد كان ترحيبه بهذه المهمة الجديدة ـ بعيدا عن المعارك الطاحنة ـ لا يفوقه ترحيب .

وبدأت السفينة تخفض من سرعتها وهى تقترب من الجزيرة ، وأخـــذ وايز يتفحص معالمها مستعينا بالمنظـــار المعظم الذى كان يحمله ـ قبل أن يستدير نحو الرقيب ويبل كيرت فوجل الذى كان يقف بجواره ويقول :

ـ سنصل بعد لحظات قليلة ، اتذكر تعليماتى واوامرى ؟

ـ نعم يا سيدى ..

ثم شرع ـ كالببغاء يردد هذه التعليمات التى كان يحفظها عن ظهر قلب :

« .. انها رغبة الفرهرر العظيم أن نحسن معاملة من نحكمهم وأن نحترمهم و .. .. و .. .. »

وحين انتهى من ترديد هـــذه التعليمات اجابه القومندان قائلا :

ـ هـــذا صحيح ، تذكر أن سكان هذه الجزيرة سيعاملونك بتحفظ وعداء ، وان واجبك أن تعمل على كسب ثقتهم ومحبتهم

وتوقف فجأة وهو يضع يده على الرشاش الذى كان يحمله الرقيب ، قبل أن يقول :

ـ ولـكن بوسيلة أخرى غير هذه .. بالصبر والمثابرة ، فهذا الشعب يختلف عن البولنديين مثلا ، وله اسلوبه الخاص فى الحياة ولهذا فلن تكون مهمتنا هنا سهلة .

ـ افهم هذا يا سيدى ..

وفى هذه اللحظة كانت السفينة قد وصلت الى المرسى فى خليج «هافر دى موتى» وحين توقفت آلات السـفينة ، وضعف صوت الأمواج التى كانت تتلاطم حولها ، القت السفينة مرساها بجوار رصيف ممتد كان يقف عليه بعض الأفراد من أهل الجزيرة، وغادر القومندان السفينة وخلفه الرقيب فوجل واتجها الى حيث كان القوم ينتظرون .

وشرع «القومندان» يتفحص الوجوه الصارمة التى كانت، فى انتظاره ، وعلى كل وجه كان يجد اجابة السؤال الذى كان يدور فى ذهنه والذى كان يقلقـه . وتمالك نفســه وحاول أن يرسم الابتسامة على شـــفتيه ـ وان بدت باهتـة ـ وهو يحيى القوم ويقول :

ـ أيكم «السوزاريان» أمير الجزيرة .. ؟

فتقدم من وســط المجموعة رجـل مسن مهيب الطلعة بادى الوقار يرتدى زيا أسود اللون وتتدلى من سلسلة ساعته صـورة صغيرة للملكة فيكتوريا التى كانت على عرش بريطانيا منذ عشرات

السنين ، وبعد أن حنى رأسه قليلا ـ ردا على تحية القومندان ـ له شرع يقول :

ـ انا راعى كنيسة ارمورال . وفى غياب أميرنا المحبوب أتولى نيابة عنه تصريف الامور هنا .

ـ اذن فسيكون حديثى معك انت ؟

وتوقف قليلا قبل أن يقول :

ـ ستحتل قوات الرايخ هـذه الجزيرة الآن ـ ومن واجبى أن أنقل اليكم تعليمات القائد العام فى « جيروسى » والتى ستطبق فى الجزيرة من اليوم .

ومن صفحة مكتوبة على الآلة الكاتبة شرع يقرأ ما سطر فيها بصوت عال :

ـ محظور على سكان الجزيرة التجول فيها بين السـاعة السادسة مساء والساعة السـادسة صباحا . يمنع خروج اى قارب او سـفينة الى عرض البحر . لايصرح لأى فرد بالاقتراب من الشاطىء . حمل السلاح محظور والأسلحة تسـلم للسلطات الالمـانية قبل ظهر اليوم . يوقف بيع المشروبات الروحية ويحظر تناولها فى اى مكان .

وهنا بدر من أحـد الحاضرين ماحمل الـكابتن وايز على أن يرمقه بنظرة حادة . كان يبـدو أن بعض ما جاء فى النشرة اثار هذا الرجل بصفة خاصة ، وكان ما ارتسم على وجه الرجل لا يدع مجالا الى الشك فى أنه لا يطيق بعدا عن الخمر .

ومن النظرة التى بدت على وجهـه وفى عينيه تأكد وايز انه سيلقى منه الـكثير من المتاعب وهو الذى جاء الى الجزيرة حاملا لشعبها الود والسلام وتنبأ بانه سيكون الخميرة التى سـيختمر بها العجين كله ، وتوقع أن يكون هذا السكير البذرة التى قد تنبت رتلا من المناضلين وأفراد الطابور الخامس . لهذا فقد راى وايز أن يعمل على أن تكون هذه البذور بذور سلام واشراق . ولم ينس رغبة الفوهرر العظيم فى أن يحسن معاملة من يحكمهم .

وعاد يتفحص وجوه القوم وجها بعد وجه ، وحين التقت عيناه ثانية بعينى هذا السكير تصلبت قسمات وجهه وبقى مشدودا اليه لحظات حتى قال :

ـ .. هذا الأمر لا ينطبق على الخمور المخزونة فى المنازل والاكواخ ..

وحينئذ فقط ارتاح وجه الرجل العجوز ، وانفرجت اسارير وايز وهو يحاول ان يستشف تاثير هذا التصريح الجديد فى وجوه القوم .

وانتصب فى وقفته من جديد ، وبصوت حاد قاطع اضاف يقول :

ـ من واجبى أن أحذركم اى مخالفة لهذه التعليمات ـ مهما كانت بسيطة ـ ستواجه فى الحال بالشدة والحزم وارجو ان يكون هذا واضحا تماما ..

وتوقف قليلا قبل ان يقول :

ـ ان الفوهرر العظيم يرغب فى أن نتعاون مع الشعوب التى يحكمها وان ...

ولكنه فوجىء براعى الكنيسة يقاطعه قائلا :

ـ ولكن الفوهرر لا يحكم الدولة التى نحن جزء منها ..

فتمالك الكابتن وايز نفسه وكظم غيظه ثم قال :

ـ انها ياصديقى مسالة وقت لا اكثر .. هلا صحبتنى الى قصر الحاكم ؟

الفصل الثاني

من الماضي البعيد حتى عهد الملكه اليزابيث والجزيرة الجرداء لا يسكنها سوى الطيور البحرية ولا يطأ ارضها سوى قراصنة البحار . ولأمر ما وهبت الملكة هذه الجزيرة لمن كان يدعى هوجو فالنز وتوجته ـ تحت اسم سوزاريان ـ اميرا عليها هو وذريته من بعده ومضت اربعة قرون وسكان الجزيرة يتوالدون ويعيشون ويموتون .. في سلام ، والسلطة في يد «السوزاريان» . وعلى مدى هذه القرون كان قصر الأمير مفتوحا دائما امام كل من كان يواجه متاعب ـ ونادرا ما كان يرد خائبا . وكانت ادارة الجزيرة في يد مجلس صغير من ستة افراد يتم انتخابهم من بين سكان الجزيرة ـ يسمى مجلس البلاط . وكان هذا المجلس يتابع اجتماعاته برياسة « السوزاريان » ليدير شئون الجزيرة وينظم امورها .

وفي ربيع عام ١٩٣٨ استشهد «السوزاريان» في كارثة بحرية نحلت بالجزيرة وتولى الحكم بعده ولده لوك ـ الواسع المعرفة والادراك وان كان صغير السن ـ فسار على نهج والده واجداده في حكم الجزيرة وشعبها .

***

وذات يوم دقت الطبول عالية تهز ارجاء اوربا .. واستدعى وامي الكنيسة الى القصر ، ودعى مجلس البلاط الى اجتماع عاجل ، وتجمع شعب الجزيرة امام القصر يتنسم الانباء ، وخرج اليهم اميرهم الشاب لوك يعلن انه وكل الى الأب جاك لوشمينت

وأعى الكنيسة حكم الجزيرة حتى يحين الوقت الذى تسكت فيه المدافع من القتال ، وتدوى مقرونة بفرحة النصر .

ولم تمض ساعات حتى كان الأمير الشاب وشقيقته قد غادرا الجزيرة فى طريقهما الى حيث يملى عليهما الواجب أن يكونا ...

وتتابعت الأيام ـ وبدأ الاحساس بالخطر يراود سكان الجزيرة وتوالت أنباء الزحف الالمانى الذى كان يهدد دول أوربا وشعوبها ، واستمع القوم ـ ربما للمرة الأولى ـ الى كلمة « دنكرك » ، واخذوا يرددونها فى احاديثهم بقلق ظاهر .

وفى اليوم الأول من شهر يولية ظهر سرب من الطائرات الالمانية فى سماء الجزيرة واخذ يمسح ارضها ـ جيئة وذهابا ـ وهو على ارتفاع منخفض ويشحن جوها بأزيزه المزعج .

ومضت أيام .. والقوم فى خوف ظاهر والنفوس يعصرها القلق .

وفى اليوم العاشر .. كان الراعى يرتدى زيه الكهنوتى الأسود ويضع على راسه قبعته المستديرة ، وفى سكون وصمت تقدم نحو الميناء يتبعه مجلس البلاط ، ووقفوا جميعا ينتظرون السفينة الحربية التى كانت تقترب من الجزيرة . وحين توقفت آلات السفينة ، استدار نحو رفاقه وتكلم ـ للمرة الأولى ـ يناشدهم الصبر ..

***

وعلى ابواب قصر الحاكم توقف الراعى واتجه نحو الكابتن وايز يقول :

ـ هل اصرف اعضاء المجلس ؟

ـ نعم . يحسن أن نناقش بعض الأمور أولا ونحن منفردان .

ـ كما تريد ..

واستدار الراعى نحو الجماعة التى كانت تتبعه فى صمت وسكون وبلغة الباتوا التى يستخدمها سكان الجزيرة ، قال :

ـ عودوا الى دوركم فليس هناك ما تفعلونه الآن . ساحادثكما هذا الضابط وسنلتقى جميعا فى دارى فى تمام الساعة السادسة مساء ، ولا اطالبكم الآن الا بالصمت .. وبالصبر ..

وفى ســـكون غادر الرجال القصر .. وتقـدم الراعى نحو الباب الداخلى ، وبعد أن فتحه بمفتاح كان يحمله خطا الى الداخل ووقف ينتظر ، وبدت الدهشـــة واضحة على وجه الـكابتن وايز فقد كان يتوقع أن يفتح الراعى الباب وينتظر حتى يدخل هو أولا ، ثم ابتســـم الى الرقيب ابتســـامة صفراء كمن يقول له ان الأيام كفيلة بأن تغير كل هذه الطباع وبدءوا جولتهم داخل القصر ، وأمام احد الأبواب المصنوعة من خشب الســـنديان توقف الراعى وهو يقول :

ـ لقد شاهدتما كل ما فى القصر ..

ـ ولكنك لم ترنا هذه الحجرة بعد ..

ـ لا اظن أن «السوزاريان» يرحب بدخولـكم اليها ،

فصرخ القومندان يقول :

ـ افتح هذا الباب فورا .

ولم يملك الراعى سوى ان يمتثل للأمر ففتح الباب .. ودخل يتبعه القومندان والرقيب . ولم يصدق وايز عينيه وهو يدور فى الحجرة يشاهد ما فيها من أثاث ثمين ويتفحص المـائدة المصقولة التى كانت تتوســـط الحجرة ، والمقاعـــد التى رصت حولها ، والثريات المدلاة من سقفها والستر التى تغطى نوافذها ، واستغرق فى تفكير عميق قبل أن يقول :

ـ كيف تخصص حجرة واحدة فقط للزائرين فى مثل هـذا القصر ؟

ـ انها غرفة البلاط ياسيدى وليست للزائرين ، ونحن نعدها الآن لاحتفال بعودة السوزاريان .

وشمل الحجرة سكون طويل ، وبقى الكابتن وايز لفترة يحاول

أن يسيطر على ما فى نفسه من أحاسيس تكاد تكون عاصفة ... كيف يجرؤ مثل هذا الرجل على مواجهته بل ... وتحديه ؛ وهو الحاكم بأمره والسيد الذى تجب طاعته . الى أى مدى سيتهاون فيما يفرضه عليه زى الغازى وسلاح المحتل ؛ لماذا الزموه أن يحسن معاملة مثل هذا الرجل وان يتحمل تصرفاته وهو الكابتن وايز . الضابط الالمانى بالاى البانزر التاسع سيد جزيرة ارموران وحاكمها . وفى صوت يكاد يكون ذليلا ، استدار نحو الرقيب فوجل يقول :

ـ سأتخذ من حجرة المائدة مكتبا لى ...

ثم توجه بالحديث نحو الراعى يقول :

ـ سنترك هذه الحجرة كما هى مغلقة .

فأجابه الرجل يقول :

ـ انه لقرار حكيم ياسيدى القومندان .

ـ لا أنتظر تصديقك على قرارى .. بل أطلب طاعتى ...

ثم توقف قليلا قبل ان يقول :

ـ سأستدعيك بعد دقائق لأبلغك تعليماتى الأخيرة .

ـ حسنا يا سيدى . ساكون فى الانتظار .

وغادر القومندان الحجرة ، وتبعه الراعى فى سكون ثم اغلق الباب واعاد المفتاح بهدوء الى الحلقة التى كانت فى زناره .

***

كان امرا غريبا على الراعى أن يقف فى القاعة المظلمة ينتظر اللحظة التى يتكرم فيها القائد الالمانى باستدعائه . كان يشعر بالاجهاد برغم أن النهار لم يكن قد انتصف بعد ، وكان قد خاض المعركة وانتصر فيها ولكنه كان يعلم انها المعركة الأولى وان هناك معارك اخرى كثيرة عليه أن يتوقعها وأن يواجهها خلال الشهور القادمة .. وربما خلال أعوام . لو أنه فقط ... كان اصغر سنا وأوفر شبابا ...

وفجأة فتح باب الحجرة وصاح الرقيب يدعوه للدخول ..
وحين توسط الحجرة دعاه القائد الى الجلوس وهو يقول :

ـ ما اسمك ؟

ـ انا كاهن ارمورال ..

ـ اتفضل ان تعرف بوظيفتك دون اسمك ! !

ـ نعم . انها العادة هنا ..

ـ سأكون صريحا معك أيها الأب ..

واستغرق القومندان فى التفكير قليلا قبل ان يقول :

ـ صحيح اننا ننشـــد اخلاصكم وتعاونكم واننا سنبذل كل ما فى مقدورنا فى هـــذا السبيل ، ولـكن هنـــاك من الحدود ما لا نستطيع تجاوزها .. سنحترم عاداتكم ولـكننا لن نتحمل العناد أو الاعتراض .

وحاول ان يكظم غيظه وهو يقول :

ـ ما اســمك ؟

ـ جاك لوشمينت .. راعى ارمورال .

ـ شـــكرا .. ارى فى الوقت الحاضر على الاقل ان تبقى فى مكتبك بصفة دائمة .. لقد تلقيت تعليماتى واليـك صورة منهـا نضعها على مدخل الـكنيسة ليراها الجميع .

وتوقف قليلا قبل ان يقول :

ـ استمع الى ما اقوله بعنـــاية .. جميع الأسلحة واجهزة الراديو تسلم للرقيب فوجل هنا قبل الظهر . ستوضع « تحويلة التليفونات » تحت اشراف رجال الاشارة الالمـان ، ولن يصرح لاى من سكان الجزيرة باستخدام التليفون لأى غرض .. اخيرا اوجه انظارك الى اننى قد لاحظت هذا الصباح انك تحدثت الى رجالك بلغة البانوا . ولما كان رجالى قد انتخبوا لهذه المهمة لمعرفتهم باللغة الانجليزية .. فانني أحذركم جميعا الحديث بغيرها .. هـــل هذا واضح ؟

فأجابه الراعى بقول وقد امتلأ غضبا :

ـ لا احب ان أثير المتاعب . ولـكن . ارجو ان يلاحظ سيدى القومندان اننا نستخدم لغتنا القومية وهى اللغة التى يستخدمها سكان الجزيرة منذ قرون .

ـ هناك الـكثير الذى يجب أن يتعلم سكان الجزيرة نسيانه . ولتكن هذه أولها . اننى أحذركم التحدث بلغة الباتوا .

قالها وهو يثق تماما انه امر سيعجز عن تحقيقه .. وانه لن يستطيع متابعـــة اهل الجـزيرة فى دورهم .. أو فى حقولهم ومراعيهم ، ولـكنه وقد اندفع واصدر هذا الأمر ، فقد كان من العسير عليه أن يتراجع فيه .

ثم تابع تعليماته ونواهيه يقول :

ـ يراعى تنفيذ قيود الاضاءة بدقة وعناية ـ تمنع جميع السفن والقوارب من الخروج الى عـــرض البحـر ويمنع الاقتراب من الشواطىء ، عليك أن تعد اماكن الايواء المناسبة للجنود وان تستعد لاستقبال غيرهم فى اى وقت ، سنقوم بامداد الجزيرة باحتياجاتها من التعيينات والوقود وعليـــك أن تعد بيبـــانا بأسماء السكان واحتياجاتهم المعتادة .

وتوقف لحظات قبـــل أن يقوم الى حيث كان يضع حاجاته ، ويأخذ من بينها خريطة صغيرة للجزيرة ثم يتابع حديثه قائلا :

ـ معى هنا خريطة للجزيرة ، وسأطلب حضورك حين يتوفر لدى الوقت لأستوضح ما فيها على الطبيعة ولأتبادل معك حديثا عن سكان الجزيرة .. عاداتهم وطبـــاعهم ، نظام الحـكم الذى تسيرون عليه .. وغير ذلك ..

واستغرق الراعى فى تفكير عميق ، وابهامه تدور على المائدة يرسم دوائر على الغبار الذى كان يعلوها يكشف عدم انتظامها عن القلق والغضب الذى كان الراعى يحاول كبته ، وبعد لحظات اجاب يقول :

ـ سيدى القومندان .. ماتطلبه ، لا يصعب شرحه وايضاحه وهو هنا ، ينال تقدير كل فرد من أهل الجزيرة بل واحترامه .. بالنسبة الى عاداتنا وطباعنا ، فسترى وتلمس كل شيء بنفسك ، مع الوقت ، حتى تصبح مألوفة لك ، ونظام الحكم فى الجزيرة قد يبدو لك بسيطا متواضعا ولكن قوته تتركز فى احترامنا له وتمسكنا به .

كان فى هذه الكلمات ـ معنى وأسلوبا ـ مارأى القومندان غرابة فى صدوره من هذا الرجل الأعزل ولكنه لم يستطع سوى ان يحنى راسه وأن يترك الراعى يتابع حديثه قائلا :

ـ أميرنا السوزاريان هو الأب الروحى للجزيرة ، سواء أكان شابا صغيرا أم كهلا مسنا ، ويليه راعى الكنيسة ينوب عنه ويتولى سلطاته فى غيابه وينتخب أعضاء مجلس البلاط من بين سكان الجزيرة .. وقد يكون العضو صيادا أو قد يكون زارعا .

ـ واين اميركم هذا الآن ؟

ـ لا ادرى تماما ، ولكنه غادرنا هو وشقيقته ليؤديا واجبهما فى المجهود الحربى .

ـ اتعنى انهما هربا وتركاك وحدك ـ انت الرجل المسن ـ تتحمل كل هذه المسئولية هنا ؟

ـ لم يهربا يا سيدى ؛ لقد ذهبا ليشتركا فى القتال من أجل تحقيق النصر .

ـ حين غادركم الأمير .. هل صحب أحدا غير شقيقته ؟

ـ لقد غادرانا وحدهما .

ـ هل هناك ـ من افراد اسرته من بقى فى الجزيرة ؟

ـ نعم ...

ـ من ؟

ـ ابن عم الامير .. مستر ليونيل فالين .

ـ بلغه تحياتى اذن ، وادعه لمقابلتى فى الثالثة بعد ظهر اليوم »

وبدا الالم واضحا فى صوت الراعى وهو يقول :

ـ أحب أن أوضح أن مستر ليونيـــل ـ برغم انه من أفراد الاسرة ـ فانه لا يشبه الامير بأى صورة من الصـور ، وأرجو ألا يخطىء القومندان الحـكم على أميرنا الغـائب بعـد أن يلتقى بهذا الرجل .

ـ حديثك هذا يزيدنى رغبة فى لقاء مستر ليونيل ، عليه أن يحضر فى الساعة الثالثة »

ـ ولـكنه قد لا يرغب فى ذلك ...»

ـ فى هذه الحالة سأرسل اليه الرقيب فوجل »

الفصـــل الثـــالث

كان ليونيل فالنز فى حوالى الثانية والعشرين من عمره ، طويلُ القامة ، شاحب اللون ، اعتـــاد أن يقف بالساعات فى مرسمه ـ أو فى المـكان الذى يقع عليـه اختياره فى أطراف الجزيرة ـ دون ان يستقر على رأى أو ينتظم فى عمل حتى تمر الســـاعات ويضيع الوقت هباء ، واذا انكب على الرسم .. لاينتج شيئا يلفت الأنظار .

وكان ليونيل واقفا كعادته يمعن فى النظر الى الأفق البعيد عند «بوانت دى جوا» بعد أن توقف تماما عن الرسم ، وتحت قدميه كانت أمواج البحر تداعب صخور الشاطىء فى هـدوء ، وفوق رأسه كانت تقف ســحابة كأنما سمرت فى مكانها لتحجب عنـه اشعة شمس يوليو الحارقة ، ولكنه لم ير فى هذه اللحظة ماحوله من حسن ولم يحس بما فى الأفق من جمـال .. لحظة انكسار اشعة الشمس على حافة السحابة .

وفى وقفته هذه لمح رجلا غريبا يقترب منه وحين ميزه تماما ادهشه أن يجده يرتدى الزى العسكرى ويحمل السلاح فى يده ، واذ وصل القادم الى حيث كان ليونيل يقف ـ بادره يقول :

ـ هل انت ليونيل فالنز ؟

ـ نعم .. أنا هو .

ـ لقد ابلغك الراعى تعليمات الحاكم بالحضور الى مقر قيادته فلماذا تخلفت عن الموعد الذى حدده لك ؟

ـ نعم .. اذكر أن الراعى ذكر شيئا كهذا .. ولكننى خشيت أن يفوتنى جمال هذا المنظر .. كم الساعة الآن ؟

ـ لقد تجاوزت الرابعة .

ـ حسنا . سأكون مستعدا بعد قليل »

ولـكنه حين رأى يد الرقيب فوجل تمتد الى زناد الرشاش الذى كان يستعمله أسرع يقول فى صوت واهن يكاد لا يسمع :

ـ هلا أبعدت هذا الشيء .. فقد يكون معمرا ..

ـ انه لكذلك .. فيه مايكفى أن يمزقك أربا .

ـ اذن كن رجلا طيبا وابعده .. فقد ينطلق »

ـ ستأتى معى وفى الحال ..

ـ ولم العجلة .. اظن أن قائدكم سيبقى هنا عدة ايام أخرى ، أليس كذلك ، لقد انتظرت أسابيع طويلة حتى تجمعت أمامى هذه اللوحة الرائعة وهى ...

فقاطعه فوجل وهو يصرخ ويقول :

ـ أيها السفيه .. لو أنك كنت فى بولندا لقضيت عليك فى الحال ..

ـ سفاهة .. كلا ، ربما شرود ذهن .. لا أدرك .. ولـكن » دعنى أؤكد لك ان القتل سواء فى بولندا ام بتاجونيا ام فى أى مكان آخر لايمكن أن يكون حلا لأى مشكلة .

ولم يتمالك فوجل نفسه ، ورفع يده الى أعلى وبكل ما فيها من قوة هوى بها على وجه ليونيل ، وفى تشف ظاهر وسخرية قاتلة قال :

ـ لا اخالك ستتردد فى الذهاب معى الآن »

***

ـ لقد وصل « هر فالير » يا سيدى »

ـ شكرا أيها الرقيب . انه ليس « هر » .. «مستر» فقط »

وحين استدار الرقيب فوجل مغادرا الحجرة تمهل القومندان

لحظات وهو ينعم النظر فى وجه ليونيـــل ـ ثم اتجه فى خطوات هادئة نحو المـــائدة وهو يقول :

ـ مستر فالنز .. هلا تفضلت بالجلوس ؟

ـ شكرا يا سيدى .

ثم ساد السكون لحات قبل ان يقول ليونيل ؟

ـ من الواجب ان اعتذر ياسيدى عن تاخيرى ، كنت ازاول الرسم ، ونحن هنا نخضع لقاعدة تقول ان الوقت خادمنا وليس سيدنا .. صدقنى ياسيدى اذا قلت اننى لم ارغب فى أن اكون فظا هكذا ..

ـ المس هذا .. ولـكن ، ماهذا .. هل اصبت فى حادث ؟

ـ نعم ، انزلقت قدمى فوق الصخور .

ـ هل اطلب لك بعض « البراندى » ؟

ـ كلا .. شكرا يا سيدى .

واستغرق كابتن وايز فى متابعـــة الدخان وهو يبتعـد عن سيجارته المشتعلة ـ فى حلقات متتابعة منتظمة ، ثم استدار فجاة نحو ليونيل يقول :

ـ هل اوجه اليك بضعة اسئلة ؟

ـ بكل تاكيد .

ـ لقد قرات فى ســـجل الاسرة انك ولدت عام ١٩١٢ وانك الابن الوحيد للميجر جنرال سيرماك فالنز والليدى هلواز (ا.ب) للادميرال الجيرنون مارلو .. ما المقصود بالحرفين (أ.ب) ؟

ـ الابنة البكر ..

ـ هكذا .. لاحظت ايضا انك تلقيت دراستك فى وينشستر وكلية سان جون وفى اكسفورد .. ماهو التخصص الدراسى الذى تلقيته فى اكسفورد ؟

ـ العصر البيزنطى اليونانى .

ـ هذا جميلٌ .. من المعلومات الاخرى التى حصلت عليها يبدو لى بوضوح أن شخصيتك معقدة ـ برغم ماتلت من شهادات ولا اخفى عليك أن وجودك فى الجزيرة ـ فى هـذه الظروف ـ ادهشنى . من كان مثلك ينتسب الى هذين القائدين الكبيرين .. لايمكن ان يتخلف عن اداء واجبه الوطنى بلا سبب معقول .

ـ لا ارى اى دخل او تاثير لهما فى امورى الشخصية ، فانا فنان ياسيدى ابحث عن الجمال حيث يكون لاسجله بفرشاتى ..

ـ الهذا بقيت فى الجزيرة .. بينما بلادك فى حالة حرب تعوزها كل يد قوية . اننى ـ كجندى المانى ـ لا اصدق ان السلطات البريطانية تتغاضى عن هذا الامر ، ولا اعتقد ـ مع ما لاسرتك من ماض عسكرى عريق فى خدمة التاج البريطانى ان يتقاعس اى فرد منها عن اداء واجبه نحو بلاده بهذه الصورة .. واتساءل هل من سبب آخر لبقائك ..؟

ـ اى سبب آخر ياسيدى ؟

ـ الخدمة السرية مثلا .

ولم يتمالك ليونيل نفسه واستغرق فى الضحك قبل ان يقول :

ـ يجب أن تزورنى ياسيدى لتشاهد الأدوات التنكرية التى استخدمها ، وأن ترى حامل اللوحات الذى ارفع عليه «ايريال» جهاز اللاسلكى .. وان ...

فقاطعه وايز يقول :

ـ ليس هذا مجال الضحك او السخرية .. تذكر فقط النرويج والدانيمرك .. وتذكر هولنده وبلجيكا وحتى فرنسا ، لقد كان هجوم القوات الالمانية حيث لم يكن متوقعا ، وكان للطابور الخامس الالمانى فضل ملموس ..

ـ لقد اخلجتم تواضعى ياسيدى .

ـ اليست الحقيقة .. ما قلت .. ؟

ـ نعم .. وبكل اسفَ ، لم أكن أبدا جنديا أ وبحارا ، وأؤكد ايضا انني لم أكن ولن اكون من العملاء . انني أعيش فى الجزيرة لا لغرض سوى الرسم .. هوايتى وعبادتى . وهذا هو السبب الحقيقى لبقائى هنا .. أقوله بصدق .. وببساطة .

ـ هل اخبرك ماذا يصيب الشخص الذى يتظاهر ـ مثلك ـ بالبساطة فى البلاد التى يحكمها الرايخ ؟

ـ .. ..

ـ امثالك ينقلون الى برلين .. الى سجن الكسندر بلتز وطبقا لقانون هيرمان جورنج الجديد ـ يستلقى السجين على ظهره ويرى بعينى رأسه الجلاد وهو يهوى بالبلطة على رقبته ، فيفصلها بضربة واحدة .

ـ لن يكون هناك مايدعو لهذا ، والآن ياسيدى هل تسمحون لى بالانصراف .

ـ بكل تأكيد ، وسنلتقى كثيرا وارجوا ان تركز جهودك دائما فى الرسم .. وفى الرسم فقط .

ـ ليس لى اى نشاط آخر ياسيدى ، اطمئن الى هذا ..

***

وما ان انصرف ليونيل من الحجره حتى صرح الـكابتن واين يدعو برفيب فوجل ، وحين وصل نادوه يقول :

ـ هل انت الذى سببت له هذه الاصابة ؟

ـ .. ..

ـ هل لطمته مثلا بقبضة يدك ؟

ـ لقـــد ..

ـ اذن فقد لطمته على وجهه ..

ـ لقد كان وقحا ياسيدى ، وحاول ان يعصى اوامرى .

ـ هل فاجأته بمثل هذه اللطمة .. ؟

قالها وهو ينهض واقفا ويستدير نحو الرفيب ويهوى فجاة بيده على وجهه وهو يقول :

ـ اكنت تتوقع هذه منى .. ؟

ـ .. ..

ـ امثالك ايها الغبى المتعـافى هم الذين يضعون رأس الرايخ العظيم في الوحل . لقـد وفرت لهذا البريطانى الفرصة فى ان يجادلنى انا الضابط الالمـانى ، ووضعتنى فى موقف لا استطيع فيه اجابة ، هذا ما فعلتـه انت .. واو عدت اليه ثانية ستلقى مصيرك كالـكلب .. اغرب عن وجهى ايها الخنزير ..

***

فى الموعد المحدد ، توالى وصول اعضاء مجلس البـلاط الى منزل الراعى ، وقبل ان يبدءوا الاجتماع ـ انحنت رءوسهم وهم يستمعون الى الصلاة القصيرة التى كان الراعى يتلوها باللغة التى كانوا يستخدمونها هم واجدادهم منذ ان وطئت قدمى جدهم الاول ـ هوجو فاليز ـ ارض الجزيرة لاول مرة .

وختم الراعى صـلاته وهو ينعم النظر فى وجوه الحـاضرين قبل أن تتحول عينـاه الى صورة لولده كانت تتوسط الحائط المواجه له ، كان اليم قد ابتلعه مع السفينة الحربية هامبشير فى الحرب العالمية الاولى ، ثم اتجه نحو زوجته فى رجاء صامت ان تعجل فى تقديم كؤوس الروم وشرائح الخبز المقدد بالجبن التى كانت تحملها .

وقبل ان تغـادر مارى الحجرة ، نهض الراعى رافعا كاسـه وهو يقول :

ـ فلنشرب نخب اميرنا العظيم .

وتعالت أصوات القوم بعده تدعوا للسوزاريان بالسلامة وتسال الله ان يحفظه وان يرعاه .

وعاد الراعى الى مقعده وهو يقول :

ـ ليس لدى أيها السادة ما اقوله مما تعرفونه ، الحديث بلغتنا ممنوع . واعتقد أن القائد الالمانى يعلم جيدا انه كان من الغباوة أن يصدر مثل هذا الأمر ، ولا أظنه سيعيره اهتماما بعد الآن . علينا أن نسلم أسلحتنا وأجهزتنا اللاسلكية للسلطات قبل الظهر .. ولقد فكرت كثيرا فى هذا الأمر واستقر رأيى على ضرورة الاحتفاظ بجهاز واحد منها .. فاذا انعدم اتصالنا بالدولة الأم وبالعالم الخارجى ، فقد يأتى اليوم الذى نصدق فيه الأكاذيب التى سيطلقها الالمان ، لهذا يا اخوانى اخفيت جهازى داخل آلة الحياكة .. وسأستمع الى جميع مصادر الأنباء فى أوقات مختلفة وساجد الوسيلة التى انقل اليكم بها هذه الأنباء . ولقد التقى الضابط الالمانى بالمستر ليونيل بعد ظهر اليوم ، لا ادرى ماذا دار بينهما .. وليس لدينا ما نخشاه من مثل هذا اللقاء ، سيتابع بابتست عمله فى حظيرة القصر وسيبلغنا انباء أعدائنا يوما بيوم .

ثم استدار الى الرجل ذى الوجه الأحمر الذى كانت قد اثارته تعليمات وايز هذا الصباح وهو يحرم تناول الخمر فى الجزيرة ـ قبل ان يوجه الحديث اليه ويقول :

ـ فى تآزرنا وتضافرنا معا القوة التى يخشاها الالمان .. وحديثى هذا اليك وحدك ياجين ، فانت رجل مخلص وحازم ولكنك تضعف أمام الخمر التى قد تؤدى بك .. وبنا جميعا .. لقد شربت نخب السوزاريان الآن وأرجو أن تكون هذه الكأس . هى الأخيرة وان تعد بعدم العودة الى الخمر حتى يعود الينا الأمير وشقيقته .

وبتعاظم نهض جين واقفا ، وبتؤدة شرع يقول :

ـ اقسم لكم بهذا أيها الاخوان .

ـ هذا قسمك امام المجلس يا جين ! .

ـ نعم .. باسم الله وامام المجلس .

ـ يسعدنى هذا يا جين وانا واثق انك ستعمل بهذا القسم .. ـ

قالها الرامى مبتسما قبل ان يتجه الى المجموعة ويقول :

ـ هل هناك ماتريدون استيضاحه ايها الاخوان ؟

ـ ماذا عن هذا الضابط الالمانى .. ما حكمك عليه ؟

ـ يبدو طيب القلب عزيز النفس .. وعلى كل فالايام هى التى ستكشف لنا عن نيته .

***

فى حجرة المائدة بقصر الحاكم ، كان الكابتن وايز يجلس وحيدا ، وكان الظلام قد اخذ يسود المكان ..

كان يجلس فى مكانه هذا منذ فترة طويلة .. وها هو ذا الآن حتى لا يشعر بضربات الساعة الرتيبة وهى تذوب فى السكون الذى كان يطوى القصر . لقد كان فى هذه اللحظات .. يجنى ثمار النصر ، الذى كان فى فمه كالعلقم ، والذى جعله يزداد يقينا بأن اللعنة على كل ما هو المانى .. تطارده حتى فى هذه الجزيرة البعيدة ، وانه سيبقى وحيدا .. مكروها ممن يريد ان يكون صديقا لهم .. طالما بقيت هذه اللعنة تطارده ..

الفصل الرابع

عاد البرت راندوز الى مكتبه فى وزارة الزراعة والمصايد ـ بلندن ـ بعد أن تناول غداء خفيفا فى أحد مطاعم هوايت هول الصغيرة ، وابتاع نسخة من جريدة الايفننج ستاندرد . كان هذا اليوم هو الرابع عشر من شهر يوليه وكانت الساعة قد تجاوزت النصف بعد الواحدة وكان الوقت مازال مبكرا يسمح له بقراءة الصحيفة حتى يحين الموعد المحدد لبدء فترة العمل المسائية .

وضاق البيرت بما فى الصحيفة من انباء سياسية وعسكرية وكاد يلقى بالصحيفة الى جانبه حين لمح نبأ صغيرا يكاد يكون ضائعا بين غيره من أنباء أكثر أهمية وأشد لفتا للأنظار . كان النبأ يعلن ـ نقلا من راديو هامبورج ـ احتلال قوة المانية صغيرة لجزيرة « ارمورال » أصغر الجزر فى بحر الشمال . وربما لم يكن فى هذا الخبر ما يثير اهتمام القارىء العادى ، الذى يقرأ كل يوم ويسمع كل لحظة أنباء سقوط دول وممالك أعظم وأهم من جزيرة «أرمورال» ولكن النبأ ـ بالنسبة الى البيرت هذا كان يعنى الكثير .. فما كاد يقرؤه حتى أسرع يبحث عن أضبارة فى مكتبه كانت تحمل عنوانا « فينوس ـ ارمورال » ، ثم جلس يقلب صفحاتها بحثا عن وثيقة ما ، ما أن وجدها حتى شرع يقرأ ما فيها ويسجل بعض بياناتها ويراجع ما حوته من أرقام ، وسرعان ما غادر الغرفة حاملا فى يده الجريدة والاضبارة ، وبعد لحظات كان يقف أمام روبرت كاروزن رئيسه المباشر والمسئول الأول عن قسم الانتاج الحيوانى بالوزارة .

واذا لم يجد البيرت من رئيسه هذا اهتماما بما كان يحاول أن يوضحه له ، عاد يردد فى لهفة واصرار :

ـ انها «فينوس أرمورال» يا سيدى .

ـ ما دخلها فى الأمر ؟

ـ انها حامل من « مارس » .

ـ هذا جميلٌ .. ولكن هل ترى أن الوقت مناسب الآن لسرد أسماء آلهة الاغريق هذه ؟

ـ انهما بقرة وثور . البقرة فى ارمورال والثور نحن ـ بكل أسف ـ فى حادث منذ أسابيع قليلة .

ـ هلا أوضحت لى هذه الطلاسم ؟

ـ منذ عشرات السنين والوزارة تعنى بسلالتين ممتازتين من الابقـــار تشرف على تربيتهما فى جزيرة ارمورال واخر هـــاتين السلالتين فينوس ومارس .. وتحمل فينوس الآن اول جنين لها من مارس ، ويؤلمنى ان اقول انه ايضا الاخير .

ـ حسنا .. ستجد فينوس اذن الرعاية الواجبة حتى نضع مولودها فى سلام . اى اسم ستطلقونه عليه ؟

قالها فى ســخرية واضحة وهو يحاول ان يقاوم النوم الذى كان يداعب جفونه .. لقد قضى الليلة الماضية كلها ساهرا بعمل مع جماعات المتطوعين فى اقامة وتحصين الملاجىء وكان فى حاجته الماسة ـ هذه ـ الى النوم ، وفى الارهاق الذى عاناه فى العمل هذا اليوم .. ما اثاره وافقده صوابه عدة مرات ، ولكنه الآن ـ لسبب لا يدريه ـ يستمع فى هدوء الى قصة « فينوس ومارس » وان كان لا يفهم منها شيئا . حتى قال البيرت :

ـ قد يسوءك يا سيدى ان تعلم ان الالمان قد احتلوا جزيرة « ارمورال » .

ـ يا الهى .. لم يخبرنى أحد بهذا النبأ المؤلم .. لا أحد يخبرنى هنا بشىء سوى ما يتصل بآلهة الاغريق ..

ـ ولهذا يا سيدى ففينوس ومولودها المنتظر أسرى حرب الآن لدى الالمان .. وسيبقيان هناك .. ما لم ...

ـ ما لم ماذا ؟ . لا اظنك تقترح أن احيل هذا الموضوع الى وزارة الحربية .

ـ بالعكس يا سيدى .. فهذا تماما ما جئت من اجله .

الفصل الخامس

بعد ظهر نفس اليوم ـ الرابع عشر من شهر يوليه ـ كان راعى ارمورال يسلك طريقه نحو القصر ، وما أن ولج الباب الكبير حتى استقبله الحارس بتحية رقيقة حاول الراعى أن يردها ولو بمثلها ، ولكنها جاءت باردة.. فالرجل لم ينس ولن ينسى ان هذا الجندى يمثل القوة التى تحتل بلده ..

وتتابع صوت وقع خطواته القوية المنتظمة فى ردهة القصر ، ومن احدى الغرف الجانبية انطلق الرقيب فوجل خلف الراعى وهو يصرخ قائلا :

ـ الى أين انت ذاهب ياهذا .. ألم يعلمك أميرك أن تستأذن قبل الدخول ؟

ـ لقد طلب القومندان أن اقابله فى تمام الساعة الثالثة .

ـ اذن فانت تحافظ على الموعد تماما ولست مثل مستر ليونيل ؟

ـ هل ادخل الآن ؟

ـ لا .. انتظر هنا حتى أدعوك ..

وغاب الرقيب فوجل لحظات ، عاد بعدها يدعو الراعى الى الدخول .. وحين توسط الغرفة نهض الكابتن وايز محييا ثم دعاه الى الجلوس وهو يقول :

ـ هل شاركتنى احدى السجائر الالمانية ! .

ـ كلا .. شكرا .

ـ اذن تستطيع ان تشعل غليونك اذا شئت ».

وسادهما السكون لحظات قبل ان يتابع القومندان حديثه ويقول :

ـ والآن يا صديقى ، ماذا يرى سكان الجزيرة فى جنودنا ؟ »

ـ انهم جنودكم على كل حال .. ولقد اجبتم عن السؤال »

ـ كيف ؟ .

ـ هل اسأت الايضاح يا سيدى ؟

وتوقف الراعى قليلا وهو يشعل غليونه ثم تابع حديثه قائلا :

ـ ما من شيء ـ يا سيدى ـ نعيبه على جنودكم ، وهم يتظاهرون بالود والعطف نحو اطفالنا، ربما بوازع من انفسهم وربما طبقا لسياسة مرسومة لهم حتى يكتسبوا ثقة وتقدير آبائهم ايضا » لا ادرى .. ولا يهم ، فاننا ـ بما فى ذلك الاطفال ايضا ـ لن ننسى ابدا انكم الان .. وان بين جنودكم وبيننا فراغا كبيرا لا يمكن ان يملأ او يسد وسيبقى هذا الفراغ قائما ما بقيتم هنا ..

ـ امر بقائنا هنا ليس موضوع مناقشة ، لقد أعلن الفوهرر ان نظامنا سيسود العالم الف عام على الاقل .

ـ لقد بلغت من العمر عتيا يا سيدى ، وليس فى مقدورى أن أرى ما يحمله المستقبل ولا ان اتنبأ به بالقدر الذى يستطيعه زعيمكم . ولكننى لا اجد فارقا بين الف عام ومائة عام .. فالفراغ سيظل قائما بيننا .

ـ اعتقد ان فى مقدورنا معا ان نقيم القنطرة التى تربط ما بيننا .

ـ لن تستطيع هذا ، فسرعان ما ستهب الرياح من الغرب ثانية .

ـ هراء ، فلن تقوم لبريطانيا قائمة بعد اليوم .

ـ اذا كان الامر ما تقول فهل فى مقدورك ان تحقق لاهل الجزيرة مطلبا ؟

ـ هلا افصحت ؟ »

ـ لقد مر الطعام فى الجزيرة يا سيدى ، وهذا هو الوقت الذى يكثر فيه سمك الماكريل فى مياهنا .. فاذا كانت الحرب كما تقول قد انتهت .. فهل يستطيع رجالنا ان يعودوا الى البحر سعيا وراء رزقهم من هـــذا المحصول الوافر .. كما كانوا يفعلون وقت السلم ؟

واســتغرق القومندان فى التفكير ، وبدا كمن فوجىء بهـــذا الملتمس ، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه ونهض واقفا وهو يقول :

ـ ان من واجبى أن أبلـــغ برلين احتياجاتكم الخاصـــة من الطعام ، وسندبر لكم مطالبكم منها ... أما الخروج الى البحر .. فمطلب مرفوض »

***

كان « بابتستا » فى هذا الوقت ـ يعيش وحيدا فى كوخ صغير بجوار مزرعة الأمير ـ ومنذ أكثر من خمسين عاما من سنوات عمره التى جاوزت السبعين ، وهو يعمل علافا ومربيا لماشية الامير . وما من بقرة أو ثور ولد فى المزرعة لا يعرف التفاصيل الدقيقة عن نسبه واوصافه وطباعه .. كان رجلا متدينا لايفوته ابدا أن يختم كل احاديثـــه بعبارة اشتهر بها بين القوم توضح مدى ايمانه .. « لو اراد الله .. » . وكان يرى فى وجود الالمان فوق ارض الجزيرة وباء سيزول .. « حين يريد الله .. » . وكان يغادر كوخه كل صباح ويرتقى ربوة عالية تشرف على البحر من بعيد ويتابع بعينيه ما قد تسوقه الرياح من سفن ـ وان كانت بعيدة ـ آملا ـ لو اراد الله ـ ان يكون السوزاريان أو شقيقته على ظهر احداها ..

وذات يوم .. فوجىء وهو يدخل الحظيرة بوجود رجلين يقفان بجوار « فينوس » ـ بقرته المعززة ـ كان احدهما صديقه القديم راعى الكنيسة وكان الثانى رجلا من جنود الأعداء .. كيف جاء الى هنا ، لماذا سمح له الراعى بالدخول ولماذا صحبه ، ليس من حقه أن يفحص فينوس وان يتجسس ضرعها .. دوامة عنيفة

طوته ، وغشاء كسا عينيه ، وهو يندفع نحو هذا الغريب ، ولكنه سرعان ما توقف وهدأ حين وقعت عيناه على عيني فينوس وحين رآها ترحب بمقدمه وبحركة لا تكاد تكون آلية رفع قبعته محييا الراعى الذى قال بصوت ضعيف واهن :

ـ هذا « بابتست » يا سيدى القومندان وفى مقدوره الاجابة عما تريد من اسئلة .

فاستدار الضابط الالمانى نحو « بابتست » ملقيا عليه نظره فاحصة .. قبل أن يقول :

ـ هل انت الذى ترعى هذه البقرة ؟

ـ نعم ..

ـ كم تبلغ من العمر ؟

ـ ثلاث سنوات واحد عشر شهرا وعشرة ايام ،

قالها بلا تردد وبسرعة وبتأكيـد الواثق من نفسه ومما يقول!

ـ ومتى ينتظر أن تضع مولودها ؟

ـ بعد اربعة عشر يوما .

ـ لا اظن هذا .. واحسبك اخطأت التقدير بعض الشيء ..

وتابع القومندان دورته حول البقرة وسرعان ما اعد الة التصوير التى كان يحملها ثم شرع يلتقط لها صـورا عديدة من اوضـاع وزوايا مختلفة « وبابتست » ينظر اليه دهشا ماخوذا .. لا شك أن هذا الرجل من رجال المدن .. انه زارع جيـد ، اسلوبه فى الفحص وتركيزه على أجزاء معينة يلتقط صـورها ، تدل دلالة واضحة على انه يعرف ما يفعل وانه يبحث عما يريد ..

وفى صمت استدار « بابتست » نحو الراعى وهمس فى اذنه بلغة الباتوا يقول :

ـ سيدى الراعى .. لا ادرى لماذا ؟ ..

ولكن الراعى سرعان ما همس يقول :

ـ صبرا يا بابتست .. سأعمل على الا تصاب بمكروه »

وكان كابتن وايز قد اتم التقاط الصور التى ارادها ، وعاد يتحسس بيده ظهر البقرة ورقبتها وهو يبتسم ويقول :

ـ لم تكن الجندية مهنتى دائما .. فقد كنت زارعا قبـــل أن تعلن بريطانيا الحرب علينا وكنت أملك قطعانا من أبقار الفريزايان المشهورة .. ولكن هذه البقرة تفوق فى صفاتها وخواصها وجمالها كل ما اعرفه من انواع الأبقار وسلالاتها . واظن انها ستثير انتباه المسئولين فى وزارة الزراعة ببرلين .

وتوقف قليلا قبل ان يقول :

ـ ارجو أن تصدر تعليماتك ليجمعوا لى السجل الخاص بهذه البقرة وانسابها وبالثور الذى تحمل منه هذا الجنين ، اريد أن احصل على بيانات دقيقة وتفصيلية عنها .. وعن انتاجها السنوى من الالبان ونسبة الدسم فيه .. وما الى ذلك .. هل هذا واضح ؟

ـ نعم يا سيدى ، فهذه البقرة معروفة لكل فرد فى الجزيرة ، ولكن .. هل لى أن اسأل ..

ولكن الكابتن سرعان ما قاطعه يقول :

ـ لا تسأل شيئا ايها الراعى .. لو كان لى أن اجيبك بما عليه قلب الزارع لشعرت بأسى لايجب على الجندى أن يفصح عنه .. ارجو فقط أن تصدر تعليماتك الى هذا الرجل .. ما اسمه ؟

ـ « بابتست » يا سيدى ومعذرة اذا حادثته بلغتنا الوطنية فهو لا يجيد غيرها »

ـ لا بأس اذن »

وسرعان ما استدار الراعى نحو بابتست وانطلق يحدثه واللهفة باديان على صوته وهو يقول :

ـ يطلب هـذا الرجل التفاصيل الكاملة عن البقرة فينوس وانسابها ؛ وعن الثور مارس ، ونسبة الدسم فى لبنها و ... واذا

اكنت على القدر الذى اعهده فيك من الذكاء تستفهم جيدا ما يجب عليك ان تفعله ..»

وارتج الامر على العجوز واغرورقت عيناه وهو يقول :

ـ ولكننى يا سيدى لا استطيع سوى اقول الصدق .. فماذا سيحدث ثالفينوس بعدئذ ؟ »

ـ يالك من غبى ايها الصديق العجوز الطيب .. اعطنى هذه البيانات وساتصرف انا فى الامر بما يحقق الخير »

ـ نعم .. لو اراد الله .. سيتحقق الخير .

وحين غادر الراعى والقومندان الحظيرة ، ارتمى العجوز على رقبة البقرة وهو يبكى ويقول :

ـ يريد ان ياخذك الى المانيا .. ولكنك لن تغادرى الجزيرة ابدا .. لن تذهبى الى المانيا .. بل لن تذهبى الى اى مكان »

الفصل السادس

استيقظ الرائد فالنتين مورلاند فى الساعة السابعة من صباح اليوم التاسع من شهر سبتمبر وغادر فراشه فى الحجرة التى كان قد استأجرها فى فندق براون .

كان قد وصل الى لندن فى حوالى الساعة الثامنة من مساء اليوم السابق ولقى ـ لحظة وصوله ـ استقبالا حافلا من رسل هيرمان جورنج الذين كانوا يزورون لندن وضواحيها خلال ساعات الليل ، هذه الزيارة التى تركت آثارها واضحة جلية فى كل مكان .

وطرق الساقى باب الحجرة ودخل حاملا الفطور ونسخة من جريدة التيمس ، وبعد أن حياه تحية الصباح قال :

ـ يالها من ليلة ليلاء .

ـ نعم .. لقد كانت ليلة صاخبة ..

ـ صاخبة فقط يا سيدى .. لقد لقى أكثر من خمسمائة شخص مصرعهم فى « وست اند » وحدها .. البك الصحيفة يا سيدى وبها الكثير من التفاصيل .

وما ان غادر الساقى الحجرة حتى القى فالنتين بالجريدة على المائدة وترك الطعام فى مكانه ونهض واقفا يبحث عن مرآة يتطلع فيها ليرى آثار الليلة على وجهه وعينيه ولكن رنين جرس التليفون المتوالى لم يتركه لتأملاته .. وما أن رفع السماعة حتى سمع صوتا حادا يقول :

ـ فالنتين ؟ .

ـ نعم .. فالنتين مورلاند .. ومن انت ؟ .

ـ « العم جورج » ؟

ـ أسعدتم صباحا ايها « العم جورج » .. الم بغمض لك جفن ؟ .

ـ متى عدت ؟ .

ـ ليلة الأمس .. في وقت مناسب لحضور حفل جورنيج .

ـ وهل .. على ما يرام ؟ .

وسرعان ما اتجهت انظار فالنتين الى طبنجته التي كان قد تركها على المائدة .. وبدا امام عينيه وجه شاحب لرجل في عمر الزهور يرقد مضرجا بدمائه وسط الطريق المظلم .. فتمالك فالنتين نفسه وبصوت بلل جهدا حتى يجعله مسموعا اجاب يقول :

ـ نعم .. نعم .. على ما يرام تماما ..

ـ هذا جميل .. احسنت صنعا .. حتى اراك ثانية فلدي عمل لك ؟ .

فسقط قلب فالنتين قبل أن يقول بلهفة ظاهرة :

ـ عمل ثان .. مثل الاخير ؟

ـ لا .. ليس مثله تماما .. سأنتظرك في تمام العاشرة في الغرفة رقم ٥٧ بالمبنى الرئيسي لوزارة الحرب .

ـ حسنا ايها « العم جورج » .. سأكون هناك في الموعد المحدد ..

***

وقبل العاشرة ـ بدقائق ـ كان فالنتين مورلاند يقدم بطاقته الشخصية لضابط الأمن في وزارة الحرب ، وحين سمح له بالدخول ، سلك طريقا كان يعرفه عبر الممرات الداخلية متجها نحو الحجرة رقم ٥٧ . وما أن طرق بابها حتى سمع من يدعوه الى الدخول ..

كان « العم جورج » يجلس الى مكتبه والى جواره كانت تجلس سيدة متوسطة العمر تسجل ما يمليه عليها من رسائل . وما أن

حيا فالنتين رئيسه التحية العسكرية المعروفة ، حتى دعاه الى الجلوس ، ثم أشار الى اضبارة كانت على مكتبه وهو يقول :

ـ عليك بقراءة مافى هذه الاضبارة حتى أنجز ما لدى من عمل عاجل .

والتقط فالنتين الاضبارة وشرع يقلب صفحاتها ويتفحص ما فيها .. وحاول جاهدا ان يربط ما بين بقرة حلوب وبين وزارة الحرب ، وبصفة خاصة الغرفة ٥٧ والعم جورج .. ولكنه لم يهتد الى شيء .

وانتقلت انظار فالنتين الى «العم جورج » تحاول أن تستشف من الامر شيئا .. كم من أسرار تختفى فى صدر هذا الرجل .. انه يعمل معه منذ شهور طويلة .. وما زال لا يعرف عنه حتى اسمه الحقيقى .. لقد قيل عنه الكثير ولكن الحقيقة مازالت مختفية وراء « العم جورج » حتى توقيعه الرسمى الذى يوقعه على اخطر الوثائق لا يزيد عن هاتين الكلمتين .

كان فالنتين قد التقى بالعم جورج ، فى منزل احد الاصدقاء إبان بدء ازمة العلاقات بين بريطانيا والمانيا .. وفى هذا اليوم قدمه الصديق باسم « العم جورج » ودار الحديث بينهما واستطاع العم جورج خلاله أن يختبر فالنتين . واستطاع فالنتين ـ دون ان يدرى من الأمر شيئا ـ أن يحوز اعجاب العم جورج وتقديره ، وانتهت السهرة بدعوة من العم جورج وجهها الى فالنتين .. للقاء آخر ..

ومن هذا التاريخ وحقيبة فالنتين تحمل اسماء فنادق عديدة إبان ستوكهولم ومدريد وروما وباريس وبروكسل وغيرها .

واستيقظ فالنتين من افكاره فجاة على صوت « العم جورج » وهو يوجه حديثه الى سكرتيرته قائلا :

ـ احملى هذه الرسائل فى الحال الى قلم الشفرة .

وما ان غادرت الحجرة حتى بادر فالنتين بالحديث قائلا :

ـ اذن فقد تخلصت من صديقنا العزيز ؟
ـ نعم .. وقد اعددت لك تقريرا وافيا ..
والتقط العم جورج التقرير من يده والقاه أمامه بلا اكتراث وهو يقول :
ـ هل قرات هذه الاضبارة ؟
ـ نعم ..
ـ ما رايك فيها ؟ .
ـ ممتعة للغاية ..
ـ كيف ؟ .
ـ قد اجد صعوبة فى الايضاح .. ولكن .. فى هذه الايام التى تدور فيها المعارك الطاحنة ويلقى فيها البعض مصرعهم فى الظلام .. اجد اهتماما يثير دهشتى بآلهة الاغريق هذه .. واين ؟ .. فى وزارة الحرب .. بل فى الفرقة ٥٧ .. ألست معى فى هذا يا سيدى ؟ .
ـ هل اخبرك برايى انا فى هذا الوضوع ؟
ـ لا داعى يا سيدى .. فانا اعرفه تماما .
ـ هل ستؤدى هذه المهمة اذن ؟ .
ـ بكل ارتياح .
ـ كنت اخشى الا تقبل .
ـ ولماذا لا اقبل ؟ . ان فيها ما يثير ...
ثم توقف قليلا واستغرق فى التفكير قبل ان يقول :
ـ ما هى المساعدات التى ساتلقاها ؟
ـ القليل بكل اسف .. ماذا تريد ؟ .
ـ جهاز لاسلكى بعيد المدى وعامل ارسال من الدرجة الاولى اعرفه انا تماما ، رقيب يدعى الكسندر فوربس .. ثم اريد الكثير من المعلومات والبيانات عن الجزيرة واهلها .
ـ مصدرك لهذه المعلومات سيكون فرعا انشىء منذ شهور قليلة

الى ادارة المخابرات البحرية فى اكسفورد ، وقد دبرنا الامر معهم وستلتقى بهم بعد ظهر اليوم وستنقلك الى هناك سيارة تقودها فتاة من المجندات كانت تقيم ـ قبل بدء الحرب ـ فى جزيرة ارمورال ».

ـ كم أكره أن تقود امرأة سيارة اركبها ..»

ـ هذه حقيقة ، ولكن الحقيقة الاخرى التى لم تعرفها بعد ان هذه الفتاة ستصحبك فى مهمتك .. يحسن أن نسرع الى ادارة العمليات المشتركة لدراسة التفاصيل الخاصة بهذه المهمة على ان تعود الى هنا قبل الساعة الثانية .. هل تحتاج الى نقود ؟

ـ كلا يا سيدى .. فما من حاجة اليها ، ولا محل لاستخدامها .»

***

قبيل غروب شمس اليوم التاسع عشر من شهر سبتمبر .. كان الراعى يسلك طريقه الى حيث كان يقيم القومندان فى القصر ، وكان الكابتن وايز ـ فى هذه اللحظات ـ يشعر بسعادة وارفة انعكست آثارها عليه وهو يستقبل الراعى ، واذ كان الراعى ـ كعادته ـ متحفظا فى حديثه وتصرفاته ، فقد تمالك القومندان اعصابه وهو يردد فى نفسه ان الايام كفيلة بان تغير من طباع هذا الرجل العنيد ..

وبدا القومندان الحديث قائلا :

ـ تلقيت اليوم ردا على رسالتى الى برلين .. ولعلك تذكر أننى ارسلت تقريرا عن البقرة فينوس الى وزارة الزراعة .

ـ نعم اذكر هذا يا سيدى .

ـ لقد رات السلطات المختصة ان تنقل هذه البقرة الى برلين لتضع مولودها هناك حيث تتوفر لها الرعاية الكاملة . وستضيف السلطات ثمنها الى حساب السوزاريان الغائب .

ـ ولكن السوزاريان ليس فى حاجة الى الثمن ولا يرغب فى

بيعها ولا فى نقلها الى المانيا . يريد السوزاريان ان تبقى هنا .. معنا ولخيرنا ..

ـ لا اتكلم بلغتين ، بل بلغة واحدة .. واضحة ، ستذهب فينوس الى المانيا ..

ـ من واجبى اذن ياسيدى ان احذركم التتاعب التى ستحدث فى الجزيرة اذا سرقتم .. اقصد اذا اخذتم فينوس ..

ـ هل ذكرت شيئا عن السرقة ؟ . هل ما سمعته صحيح ولم تخنى اذناى ؟ .

ـ كانت اول ماتبادر الى ذهنى .. فنحن تنقصنا اللباقة فى الحديث .. اذا استولى شخص بالسرقة او بالقوة على ممتلكات غيره فنحن هنا فى الجزيرة ندعوه لصا .. وانا مثلك يا سيدى القومندان .. لا اتحدث بلغتين ، اذا حاولت ان تسرق البقرة فستجد الجزيرة كلها على قدم ضدك .

وحاول الكابتن وايز ان يبدو هادئا وقال وهو يبتسم ابتسامة صفراء :

ـ اذن فستقاوم جزيرة ارمورال .. الرايخ الثالث .. يا للعجب .. ناموس يقاوم فيلا ..

ـ نردد فى بلادنا مثلا يقول « صبرا ايها الناموس فالليل طويل » . لا احب لشعب ارمورال ان يقاسى من اجل حيوان ، لذا اطلب منك ان تترك فينوس حيث هى .. حتى نستطيع ان نعيش فى سلام ، فمكانها فى الجزيرة وليس فى المانيا ..

فانتفض القومندان وقد تقلص وجهه وهو يقول :

ـ ستبقى فينوس تحت رعايتى واشرافى الى ان يحين موعد نقلها الى برلين .. انتهت المقابلة يا سيدى الراعى .

الفصل السابع

وفى تمام الساعة الثانية ، كان فالنتين مورلاند قد عاد الى مكتب « العم جورج » فبادره هذا بقوله :

ـ حسنا .. هل وجدت الأمر مقبولا .

ـ نعم .. بقليل من الحظ .. نحقق نجاحا أكيدا .

ـ لست فى حاجة الى الحظ .. اليك جواز مرورك .

قالها وهو يقدم اليه الاضبارة وقد كتب عليها « العملية (فينوس » ـ « الى الرائد فالنتين مورلاند للتنفيذ » .

وتوقف الحديث بين الاثنين حين سمعا طرقا خفيفا على باب الحجرة ، وحين اذن العم جورج للطارق بالدخول انفرج الباب عن سيدة صغيرة السن ترتدى زى المجندات وتقدمت الى حيث كان « العم جورج » يجلس وبعد أن ادت التحية العسكرية قالت :

ـ فاليز يا سيدى .. من نورث ويلز ..

ـ السيدة التى كانت تعيش فى ارمورال ؟

ـ نعم يا سيدى .

ـ هل تسلمت « عربة قيادة » .. ؟

ـ نعم يا سيدى .

ـ حسنا .. ستصحبين هذا الضابط الى اكسفورد الآن فى هذه العربة ، وستكونين تحت امرته حتى ابلغك تعليماتى الجديدة .

ـ حسنا يا سيدى ، وساكون فى الانتظار أمام مدخل الدار .

وما ان غادرت الحجرة حتى تابع « العم جورج » حديثه قائلا :

ـ اخطرت اكسفورد لينتظروك ، وعليك أن تستخلص من هذه الصفيرة كل ما تستطيع فى اثناء الطريق .

ـ تأكد اننى سافعل ..

***

ما أن لمحت السائقة فالنتين واقفا أمام مبنى وزارة الحرب فى ميدان هوايتهول حتى اسرعت تغادر مقعد القيادة ، واذ رآها ـ هو ـ تقدم فى خطوات ثابتة نحو العربة فحيته وهى تفتح الباب الخلفى للعربة فابتسم وهو يقول :

ـ اتمانعين اذا جلست على المقعد الأمامى .. الى جوارك .. ان الجلوس فى المقعد الخلفى يشعرنى بالغثيان .

ـ من الغريب ان يكون هذا شعور كل من يركب معى .. تفضل يا سيدى بالجلوس اين شئت .

وجلس فالنتين فى المقعد الأمامى وهو يشعر بالخجل .. ليس من نفسه ومن تصرفه .. ولكن .. من الظروف التى حملته على أن يكذب هذه الكذبة البيضاء ليكون قريبا منها وليبادلها الحديث الذى فرض عليه .

ـ اريد الذهاب الى اكسفورد ، المعهد الجغرافى .

ـ اخبرنى « العم جورج » انك ذاهب الى اكسفورد ..

ـ اتعرفين الطريق ؟ .

ـ ايهما يا سيدى .. طريق هنلى الجميل ام طريق وايكومب القصير ؟ .

ـ طريق وايكومب اذا سمحت .

ـ حسنا يا سيدى .

وتوالت معالم الطريق . «قصر باكنجهام» . «هوايت سيتى» . «ويسترن أفينو» . جسر «جيرارد» . ووصلا الى «بيكونسفيلد» قبل ان يبدأ الحديث معها ويقول :

ـ الاحظ انك تجيدين القيادة ..

ـ حظ المبتدئة يا سيدى .. فلم أشاهد حتى آلة السيارة قبل أن التحق بالجيش .

ـ ولماذا ؟ .

ـ كنت أعيش فى جزيرة ارمورال ، ونحن هناك نعيش على الفطرة تقريبا ولا نملك ما توفره المدنية لغيرنا .

وهكذا ـ ودون أن تدرى ـ فتحت أمامه مجال الحديث الذى كان يريده ويترقبه ، فابتسم وهو يقول :

ـ ارمورال .. أليست واحدة من جزر الشمال الخمس ؟ .

ـ نعم .. مازلت ولا شك تذكر اسماءها من عهد الدراسة .. «جيرس» ، «جورنسى» ، «الدرنى» ، «سارك» . «وارمورال» .

ـ نعم اذكرها بلا شك .. كما اذكر زوجات هنرى الثامن تماما ..

ـ نعم يا سيدى .. «كاترين اوف اراجون» و «آن بولين» ...

ولكنه سرعان ما قاطعها وهو يقول ضاحكا :

ـ اعرف التاريخ يا آنستى العزيزة ، ولكننى اليوم أحتاج كثيرا الى دروس الجغرافيا .. حدثينى اذن عن ارمورال .

واستضاء وجهها وهى تردد اسم الجزيرة فى نغم عذب ، وشرعت فى صوت حالم تحدثه عن الجزيرة .. وطنها الغالى وارض قومها وعشيرتها ومرقد آبائها واجدادها .. ثم قالت :

ـ انها جزيرة صغيرة لا تزيد عن الميلين طولا وعرضا ، تبدو للناظر من البحر كالمهجورة ولكن سكانها يزيدون على الثلثمائة يحكمهم السوزاريان أمير الجزيرة يعاونه مجلس للبلاط منتخب من ستة من أفراد الشعب بين صياد أو مزارع ، لنا عاداتنا ومعتقداتنا التى قد تبدو لكم شاذة غير مألوفة .. فمثلا يقولون انه فى يوم محدد من ايام السنة تتحول مياه الآبار فى الجزيرة الى دماء قانية ، وحتى الجزيرة نفسها .. تبدو كالساحرة .. اذا لم ترض عن زائر أو غضبت عليه استعانت عليه بالرياح تقذفه من فوق الصخور

الى البحر . وفى الجزيرة ربوة عالية حادة يصعب تسلقها وتسمى « كولين دى موتو » وفى شمال الجزيرة هضبة صخرية ممتدة تدعى « كولواردى ديابل » (ممر الشيطان) وهى مقبرة لعدد من السفن »

ـ حديثك شائق للغاية ..

ـ جغرافيا .. أم نباتيا .. أم تاريخيا ؟ »

فضحك وهو يقول :

ـ بل افضل الجغرافى ..

ـ فى حديثك معى عن ارمورال متعة قد لا تعلم مداها .. »

ـ يسعدنى ان تحققى هذه المتعة ..

ـ سواحل الجزيرة صخرية مرتفعة ، وبها ميناء واحد صغير ، ومع ذلك فاننى أعرف أكثر من عشرين مرسى صغـــيرا فى أماكن متفرقة .. يتحدث أهل الجزيرة بلغة الباتوا أصلا وان كانت اللغة الانجليزية هى اللغة الرسمية »

ـ وأيهما تتحدثين أنت ؟ »

ـ مع قومى أتحدث بلغتهم بلا شك »

وتوقفت قليلا قبل ان تقول :

ـ أهناك ما تريد ان احدثك عنه ! »

ـ نعم .. حدثينى عن مكان يدعى « لابوانت دى جوا » .. » اتعرفينه ؟ »

ـ أعرفه ؟ . ياله من سؤال .. لقد كانت هذه المنطقه مرتع طفولتى ـ أنا وابن عمى ليونيل وكنا نسبح هناك كثيرا ، يقودك اليها طريق جميل يبدأ من قصر الحاكم ، وكان هناك مرسى صغير ولـكنه لايستخدم الآن برغم مياهه العميقة ..

واستدارت فجأة تسأله :

ـ ما سبب اهتمامك بهذا المكان ؟ »

وتجاهل فالنتين السؤال وهو يقول :

ـ هل ينتهى الطريق بميل حاد الى البحر ؟ »

ـ لا .. ليس كثيرا فالطريق صخرى واستطيع السير فيه معصوبة العينين .. فى ليلة حالكة الظلام ..

ـ أفى مقدورك هذا دون أن تسقطى ويدق عنقك ؟

ـ لا ودون حتى أن تنزلق قدمى .

وسادهما صمت قصير قبل أن يتابع فالنتين حديثه قائلا :

ـ متى هجرت الجزيرة ؟

ـ من قال اننى هجرتها ، لقد غادرتها فقط مع شقيقى الى لندن ـد اعلان الحرب على المـانيا .

ـ امازال والداك فى الجزيرة ؟

ـ لقد توفيت والدتى بعد مولدى بشهور ، واستشهد والدى فى حادث منـــذ اكثر من عام ، ولم يبق من الأسرة ســوانا ... أنا وشقيقى .

ولـكنها سرعان ما تداركت القول :

ـ وابن عمى ايضا .. وهو يقيم فى الجزيرة الآن ، انه زميل طفولتى الذى كنت الهو معه فى «بوانت دى جوا» وهو فنان متعته فى الرسم فقط ، وله اسلوبه الخاص فى الحياة ونظرته المختلفة عنا للأمور ..

ـ حدثينى عن ابن عمك هذا .

ـ لم اره ولم اسمع عنه منذ غادرت الجزيرة .. لقد وصلنا ياسيدى ، هاهى ذى اكسفورد تطل علينا .

ـ لا بأس اذن ، هل نتابع الحديث فى العودة ؟

ـ كما تريد يا سيدى ...

ـ سأغيب حوالى الســـاعة ، هل ترغبين فى تناول بعض المرطبات حتى يحين موعد العودة فى تمام الساعة الخامسة .

وتوقف قليلا بعد ان غادر العربة قبل ان يقول :

ـ اتدرين اننى لا اعرف اسمك حتى الآن ..

ـ فالنز ياسيدى .. نيكول فالنز ..
ـ مس فالنز .. الى الخامسة اذن ..

***

ما أن دخل فالنتين الحجرة التى كان ينتظره فيها الكولونيل تايجل دان مدير شعبة المخابرات البحرية حتى اسرعت السكرتيرة تطلب من عامل التليفون أن يوصلها بوزارة الحرب الغرفة ٥٧ .. ولم تمض لحظات حتى كانت تحادث «العم جورج» وتقول :

ـ لقد وصل رجالك الآن .. هل اصفه لك .. انه رائد يرتدى الزى العسكرى ويحمل العلامة المعدنية للخدمة العامة فى حوالى الثامنة والعشرين حليق الذقن ، اشقر الشعر ، ازرق العينين يعلو حاجبه الأيسر جرح عميق .. اهو نفس الرجل يا سيدى ؟ شكرا ايها «العم جورج» والى اللقاء .

وما ان أنهت حديثها هذا حتى اتصلت برئيسها «بالتليتوك» تقول :

ـ لقد راجعت نسخة التقرير الذى معك ياسيدى ، وتأكدت انها صحيحة .

ـ شكرا ..

وعندئذ فقط .. بدأ الكولونيل الحديث الجاد فى الموضوع وهو يقول :

ـ لقد أمرت باعداد كل الخرائط والكروكيات والصور الفوتوغرافية المتيسرة حتى لو كانت من صور رحلات الطلبة .. ونحن الآن فى انتظار من يدعى «ترولر لانجلى» وهو يعرف عن مياه هذه المنطقة واغوارها اكثر مما يعرف أكبر خبير فى البحرية .. ولكن المشكلة اننا نجد صعوبة فى معرفة مكانه ، فهو غائب عن منزله منذ اكثر من ست وثلاثين ساعة ، وهو رجل لايطيق البعد عن الخمر ومشاربها وسقاتها .. ان افاق الى نفسه فاول مايفكر فيه البحث عن مكان جديد يجد فيه ما يروى ظماه ، وبوالى رجالى البحث عنه فى كل مكان منذ ان اتصل بى «العم جورج» ..

وقطع الحديث دخول ضابط شاب ابتسم له الكولونيل وهو يقول :

ـ بيل .. هذا هو الرائد فالنتين ، سيرافقك الى حجرة العمليات للاطلاع على الخرائط وما أعددناه له من وثائق فلا تبخل عليه بما يريد ..

***

وحين انحنى الساقى بأدب يسأل «نيكول» ان كانت تريد بعض الشطائر الأخرى ، استيقظت فجأة من ضباب ارمورال الذى كان يطويها وعادت الى الحقيقة التى كانت تعيشها هذه اللحظات فى اكسفورد .

لقد بدأ الأمر بالتساؤل ـ فيما بينها وبين نفسها ـ عن ليونيل واحواله .. امازال فى ارمورال يرسم لوحاته ؟.. هل اعتقله الالمان ونقلوه الى معسكر من معسكرات الاعتقال التى اشتهروا بها ؟ أين هو الآن ؟ هذا الذى كان رفيق صباها وزميل دراستها الذى لازمها كظلها .. طفلة وفتاة .. وشابة فى ربيع العمر حين أحست معه ـ للمرة الأولى ـ بنبضات القلب وشعرت بخفقاته بين الضلوع .

كانت تسلك طريقها ذات صباح متجهة من القصر الى المزرعة حين مرت بمنزل ليونيل وشاهدته منكبا على احدى لوحاته فأقبلت نحوه مبتسمة ، فرحب بها وهو يقول :

ـ ما رايك فى هذه اللوحة ؟

ـ ما فكرتها ؟

ـ القلق ..

ـ آه .. !

كانت لوحة بشعة ، لم تجد «نيكول» ماتقوله تعليقا عليها ولم تسعفها بديهتها بغير هذه الكلمة ..

ويبدو انه لم يسمع تعليقها بوضوح او انه لم يعره اهتماما وبادرها يقول :

ـ نيكول .. ماذا ستفعلين اذا اعلنت الحرب ؟

ـ لا تتوفر لى القدرة على اداء عمل كبير .. فانا امراة ..

ـ اعرف انك امراة .. ولـكن ..

فاستدارت نحوه مسرعة والتقت عينـــاها بعينيه فى نظرة صامتة وطالت لحظات السكون وبقيت النظرة شبه متحجرة .. ولم نسمع نيكول سوى دقات قلبها عاليـة قوية ، حتى ايقظهـا ليونيل وهو يقول :

ـ لا اريد ان تذهبى الى الحرب .. كم احبك يانيكول ..

ـ وكم احبك .. انا ايضا ..

ـ لا تذهبى اذن .. الا تعلمين انه لا ناقة لنا فيها ولا جمل ؟ الا ترين انهم لا يقدمون سوى الشباب وقودا لها ، لو ان الشباب تكتل وقاوم صناع الحروب هؤلاء لاستدار حـد السيف نحوهم واتى عليهم .. الا ترين .. الا ترين ..

كلا .. لم يكن فى مقدورها ان ترى شيئا ســوى ان الرجل الذى احبته لايفعل فى اللحظة التى يبوح لهـــا فيها بحبه سوى الحديث عن الحرب .

ومرت على نيكول وليونيل ـ بعد ذلك اسابيع وهما معـــا فى الجزيرة ، ينطلقان هنـــا وهنـــاك ، او يسبحان فى مياه الخليج الزرقاء .. او يجلسان معا على الربوة العالية يتطلعان الى الافق فى سكون او يتبادلان الحديث .. دون ان تربطهما سوى نفس الرابطة التى جمعت بينهما طفلين ..

وانطلقت شرارة الحرب وجاءت اللحظة التى كانت تعلم انها ستفصل بينهما .. هى الى طريق جديد تطرقه .. وهو على نفس الطريق الذى كان يسير عليه ، ومهما كان الامر فقد كانت على ثقة من انهما متحابان .

الفصل الثامن

حين عاد فالنتين رولاند الى مكتب الكولونيل دان استقبله هذا مرحبا وهو يقول :

ـ هل عثرت على ما جئت من أجله ؟

ـ نعم ياسيدى .. لقد لقيت الكثير من العون .

ـ جميل ، واظننا ـ أيضا ـ وجدنا الخيط الذى سوف يقودنا الى ترولر لانجلى .. أين أجدك الليلة لو أردت الاتصال بك؟

ـ أقيم فى فندق براون وقد أتناول عشائى فى مطعم «أوبيكيور» فى «سوهو» .

ـ سأتصل بك اذا تطلب الأمر ..

وعاد فالنتين الى حيث كانت العربة تنتظره وتقدم من نيكول وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة وهو يقول :

ـ يؤسفنى أن جعلتك تنتظرين قليلا .. هل تناولت شيئا من المرطبات ؟

ـ وبعض الشطائر أيضا ..

ـ الى لندن اذن ..

واستدارت العربة نحو طريق بانبرى ، وسادهما السكون لحظات قبل أن يقول فالنتين :

ـ قلت ان ابن عمك يقيم فى أرموراك .. أليس كذلك ؟

ـ نعم ، لم يغادرها معنا .

ـ ما اسمه .. ؟

ـ ليونيل ، واذكر اننى اخبرتك انه فنان يهوى الرسم ..

وسكتت قليلا قبل أن تقول :

ـ لا اظننى راغبـــة فى الحديث كثيرا عن ليونيل ولـكننى سأخبرك بكل ما تريد عن آرمورال .

ـ فليكن حديثنا اذن عن قطيع الابقار .

ـ يا له من موضوع للحديث !

واستغرقت فى التفكير قليلا ثم قالت :

ـ اننا نهتم فعلا بأبقارنا ونختارها دائما من اقوى السـلالات وتتابع انساب بعضها الى عشرات السنين ونسجل كل ما يهم بها دائما .. وقد يدهشك اننا نتابع دائما نسبة الدسم فى اللبن المأكل بقرة ومتوسط انتاجها السنوى من الالبان وغير ذلك ..

ـ اهى أبقار رقيقة ، جميلة ، مطيعة ...

فاشرق وجهها بابتسامة رقيقة ، وهى تقول :

ـ الى اقصى حد .. ولـكن ، لم سؤالك هذا ؟

ـ مجرد سؤال .. قد يكون فيه بعض الترفيه .

***

بعد ظهر نفس اليوم ـ التاسع من شهر سبتمبر ـ كان الكابتن وايز يعاين على الطبيعة المنطقة التى تقرر أن يقام فيها حقل الالعاب عند «بوانت دى جوا» . وفى طريق عودته الى قصر الحاكم التقى بليونيل فالنز قادما من تجاه القصر .. وارتسمت الابتسامة على وجه وايز وهو يحيى ليونيل ويقول :

ـ هل أصحبك فى جولتك قليلا ؟

ـ اذا رغبت يا سيدى ..

ـ أمازلت تمارس هوايتك فى الرسم ..؟

ـ لا أجد الانطلاق الذى أنشده ..

ـ اذا كان ما تقصده قيود الاحتـــلال ، فبريطانيا هى التى أرغمتنا على هذا حين أعلنت الحرب علينا .. ومع كل فنحن نحاول أن نحيا معكم حياة طبيعية .

ـ نعم .. اظن انك ياسيدى القومندان بذلت كل جهد فى هذا السبيل ، ولكن .. الا ترى اننا برغم كل هذا نشعر بقضبان السجن تعصرنا ؟.. لايهم أن تكون هذه القضبان مرئية أو غير مرئية ، ولكنها موجودة ، وبعد ذلك تسألنى عن هوايتى ، وفى حياتنا هذه الست ارسم داخل زنزانة .. وماذا ارسم سوى قضبانها الحديدية .. وهل يجد الفنان سوى انطباعات نفسه ؟

ـ لا اوافقك تماما على ماتقول ، فالطبيعة حولك أجمل ما أبدع الخالق ، فما حاجتك اذن الى المناطق المحرمة ..

ـ اذا حاولت رسم هذا الحقل فسيبدو كساحة السجن ، واذا اتجهت نحو هذه المزرعة .. فستبدو لعينى كما لو أن القضبان تحيط بها ، كيف يحول المرء آلامه الى ظلال واضواء والوان ؟ »

ـ على كل لقد وصلنا .. هل تشاركنى فى قدح من البيرة ..»

ـ ارجو الا ابدو فظا اذا اعتذرت ، ففى جو يحيط به زى الجنود ومظهرهم ، قد تبدو البيرة مرة ..»

فابتسم الكابتن وايز وهو يقول :

ـ انت رجل عنيد ، تبدو عقيدتك اقوى من ظمئك .. وهذا ما اقدره فيك ارجو ان تصحبنى الى مكتبى . !

ـ أهو امر يا سيدى ؟

ـ نعم .. امر »

انتصب الحارس محييا ، حين تقدم الكابتن وايز بتبعه ليونيل . وفى داخل الردهة توقف ليونيل كالمأخوذ وزاغت عيناه وسط المكان وارتفعت مع السلم الذى كان يتوسط الردهة الى الطابق العلوى ، وفى سكون سمع صوت قلبه ينادى باسم نيكول وصوت باب حجرتها وهو ينفرج ودقات قدميها تطرق الممشى ثم رآها تنحنى فوق الحاجز وسمعها وهى تقول :

ـ يا له من يوم عظيم رائع .. الى اين سنذهب اليوم ؟

وأيقن انها ستكون الى جواره بعد لحظات وانهما سيغادران القصر معا .. ولكنه انتفض فجأة على صوت وايز يقول :

ـ تبدو كمن رأى شبحا !! .. هلا جلست ..

ـ هذه هى الحقيقة يا سيدى ..

ـ هـذا لا يبدو لى غريبا .. منك انت صاحب الشخصية المعقدة .

وتوقف وايز قليلا وهو يسجل بضعة سطور على ورقة كانت امامه ـ ثم اعتدل فى جلسته وهو يقول :

ـ قـد يدهشك ان تعلم اننا كنا نرقبك بدقة وعنـاية طوال هذه الايام ، ما من كلمة لم نسجلها عليك ، وما من حركة لم نرصدها لك .. وقد انتهيت الآن الى تصديق قصتك ، ولهـذا قررت ان امنحك ترخيصا بالتجوال فى الجزيرة بلا قيود .

وتوقف وهو يقدم الى ليونيل الورقة التى كانت امامه ويقول:
ـ هذا تصريحك .. ارسم ما شئت .. اينما شئت .. وقتما شئت .

وقرأ ليونيل السطور التى كان وايز قد سجلها، ونهض واقفا وهو يضع التصريح على الـمائدة ويقول :

ـ انك لرجل كريم أيهـا القومندان .. ولـكننى لا استطيع قبول هذا التصريح .

ـ لانك انت أيضا شـاب عاقل .. اعطيتك هذا التصريح .. فلماذا لا تستطيع قبوله ؟

ـ لاننى يا سيدى اولا واخيرا من ابناء هذه الجزيرة .. ولا اقبل ان اكون مميزا على اهلى واصدقائى .. امنحنا جميعا حرية الحركة فى جزيرتنا .. وساهدى اليك صورة لهذا الخليج تبرز ما فيه من جمال وستكون صورة بلا قضبان ..

وبقيت الورقة البيضاء التى كانت تحوى سـطور التفرقة

والخديعة في مكانها ـ بعد أن رفض ليونيلّ أن يحملها ، وبقى وايز ينظر اليها وهو شارد الذهن بعد أن عجزت قريحته عن أن تستخلص من القوانين والأحكام والسوابق العسكرية ما يمكنه من مواجهة موقف كهذا الموقف ..

واخيرا استقر رايه على قرار ، فاستدعى مساعـــده وأمره بالتشدد فى مراقبـة ليونيل والقبض عليه اذا خالف التعليمات ولو من غير عمد ».

الفصل التاسع

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة مساء حين توقفت عربة فالنتين امام مدخل وزارة الحرب . وما ان غادرها حتى استدار نحو نيكول يقول :

ـ شكرا لكل مافعلت ..

ثم توقف قليلا قبل ان يقول :

ـ لا اخالك تمانعين فى ان نتناول معا طعام العشاء الليلة ..

ثم اشرق وجهه بابتسامة مرحة وهو يقول :

ـ وبالمناسبة اسمى مورلاند .. فالنتين مورلاند .

وعلت ضحكتها قبل ان تجيبه قائلة :

ـ اعرف كل هذا .. واعرف انك كنت طالبا فى كلية سان جود . وانك اعتدت أن تتوجه الى هيبريدز لترقب الطيور هناك الا تذكر اننا رقصنا معا منذ عامين ؟

فاجابها وقد اخذته الدهشة يقول :

ـ معذرة .. لابد اننى ابدو امامك فظا .

ـ كلا .. كل ما فى الامر ان هناك الآن من الامور التى تشغلك ما هو اهم وأوقع .

وابتسمت وهى تقول :

ـ «بوان دى جوا» فى «ارمورال» .. مثلا .

وقبل ان يجيبها مرولاند ، بادرته تقول :

ـ هل اقول ان الدعوة للعشاء هذه وليدة رغبة طبيعية ، أى انها فرصة مواتية لمتابعة ما انقطع من حديث عن «أرمورال» وابقارها ..

ـ يا له من سـؤال تصعب الاجابة عنه ، ولـكنى سـأكون صريحا معك .. اعترف ان البـاعث كان لمتابعة حديثنا ، ولـكن هذا كان منذ ساعات .. قبل ان نصل الى اكسفورد ، ولكن الامر يختلف الآن .

ـ اذن فيسعدنى ان البى دعوتك .

ـ سأكون فى انتظارك فى مطعم «ابيكيور» فى «سوهو» فى الثامنة والنصف ، فالى هذا الوقت اذن .

***

ما ان شـاهد العم جورج رجله «فالنتين مورلاند» يدخل حجرته حتى صاح يرحب به ويقول :

ـ كيف سارت الأمور هناك ؟

ـ على خير ما تشتهى السفن .

ـ وهذه الشابة الصغيرة ؟ اكانت ذات نفع .. ؟

ـ مس فاليز انسيكلوبيديا حية عن «ارمورال» . ما من شىء لا تعرفه عنها .

ـ اتدرى من تكون هذه الفتاة ، اتعرف حقيقة منبتها ؟

ـ بالقدر الذى اريده فقط ..

ـ نيـكول فاليز» .. ياولدى ، ابنة السوزاريان الراحل «لارمورال» ، وشقيقة الحاكم الحالى الذى يعمل الآن ضمن قوات الداوريات البعيدة المدى فى صحراء شمال افريقيا ، وعمله هذا يبعده عنا الآن .. ولهذا كان تفكيرنا فى شقيقته . اين هى الآن

وعلت ضحكة وهو يقول :

ـ العروس وليس .. البقرة .

ـ ذهبت لتودع العربة بالمعسكر وسنلتقى بعد ذلك للعشاء .

ـ اتدرى ان لها ابن عم فى الجزيرة يدعى « ليونيل فاليز » واحد من هؤلاء الفنانين الملتحين .. ومكانك لا اقـدم على محاولة الاتصال به ، ما لم يكن لها رأى آخر .

ـ ساعملَ بنصيحتك هذه ولاشكَ ».

وقبل ان يغادر فالنتين الحجرة توقف لحظات واستغرقَ فى تفكير عميق قبل ان يقول :

ـ اذا كان فى تفكيرك ان اصحب معى هـذه المرأة .. او اى امراة اخرى الى ارمورال .. فتاكد انك مقدم على اجراء خاطىء».

ـ عليك بالعشاء الآن .. وتاكد اننى اعرف تماما ما افعله .. اسعدت مساء يابنى ..

ـ اسعدت مساء ايها العم جورج .. وتاكد ايضا اننى اعنى تماما ما قلت ..

***

وفى الموعد المحدود كان «فالنتين» يجلس فى بار المطعم وكلما سمع وقع اقدام تقترب ، رفع عينيه عن الجريدة التى كان يتصفحها ، وما ان يلقى بنظرة فاحصة على ماحوله ، وينظر الى ساعته حتى يعود الى متابعة ما فى الجريدة من انباء ..

ووصلت نيكول قبل التاسعة بدقائق واقبلت مهرولة نحو فالنتين وهى تعتذر عن تاخيرها ، وتلقاها فالنتين ببشر وترحاب» يكاد لايصدق عينيه وهو يراها فى صورة غير التىكانت عليها حين التقيا فى الصباح . اهذه هى الفتاة التى كانت ترتدى الزى العسكرى حين رافقته فى رحلته الى اكسفورد ؟ اهذه هى المجندة نيكول التى وعدها بهذا اللقاء ؟ انه يشاهد الآن فتاة اخرى » ترتدى ثوبا من التافتاه الخضراء يزينه نسيج رفيع من خيوط الذهب ، يحيط برقبتها وينساب فوق صدرها عقد من اللآلىء البيضاء ويتدلى من اذنيها وسط شعرها الفاحم الاسود قرطان من الفضة المطروقة تزينهما نقوش صينية دقيقة ، وجهها يمتلىء نضارة وعيناها تشعان بريقا هادئا وشفتاها تمتلئان دفئا ، لقد تحولت الى امراة اخرى تختلف تماما فى مظهرها وفى خطوتها وفى رقتها وجاذبيتها . فلم تتمالك نفسه وهو يقول فى دهشة واضحة

ـ من ترى .. نيكول ، هل تخدعنى عيناى ..؟

ـ نعم .. المجندة نيكول في زيها العسكرى رقم ٢

ـ أهو الذى صمم ليعصف بالقلوب ؟

ـ لا فاننى ادخر هذا الرداء للوقت المناسب .

ـ فليحفظنا الله اذن .. اتدرين انك تبدين مثل سيدة أعرفها

ـ ومن تكون .. ؟

وتوقف قليلا قبل ان يقول :

ـ كان من الأفضل ان اعرف هذا منك .

ـ ولكنك لم تسألنى .. وعلى كل فقد لاحظت ان اهتمامك بالأبقار يفوق اهتمامك بالأشخاص .

وفى اللحظة التى بدأ فيها يرتشفان اقداح القهوة بعد العشاء جاء من يدعو فالنتين الى مكالمة تليفونية خاصة مع اكسفورد .

كان المتحدث هو الكولونيل دان ، وكان هو الذى بدأ الحديث بقوله : ـ لقد وجدنا الرجل .. فى احد السجون بعد ليلة افرط فيها فى الشرب . واذا توجهت فى الثامنة من صباح الغد الى مبنى محكمة الشرطة فى ضاحية «باو» فستجده .

ـ وكيف اتعرف عليه .. ؟

ـ لا يمكن ان تخطئه بلحيته السوداء المتدلية على صدره .. ارسله الينا فى الحال لنقوم بالتلقين اللازم له .

وعاد «فالنتين» الى المائدة وحين حاولت نيكول أن تستوضحه الأمر قال :

ـ اتعرفين رجلا يدعى «ترولر لانجلى» ؟

ـ وهل منا من لا يعرف « ترولر لانجلى » ؟

ـ اذن حدثينى عنه ..

ـ «ترولر» .. صورة حية للبحار الشجاع المكافح ، عاش حياته كلها فى جزر الشمال . يعرف ماندر أن يعرفه أحد عنها ولا يخفى عليه شيء من أسرار البحار التى تحيط بها ، فى بنيانه أقوى من الثور وان كان مشبعا بالروم .

وتوقفت فجأة وبدت نظرة الدهشة فى عينيها وهى تقول :

ـ لو سألتك لماذا اهتمامك المفاجىء بترولر هذا .. فستدين موضوع الحديث بلباقة ..

ـ كلا ، ساخبرك بالحقيقة .. امستيقظة انت تماما ..؟

ـ تماما....

ـ حسنا .. أتعرفين معنى كلمة « الامن » ؟

ـ تعنى الابقاء على سرية الامور .

ـ فى موقفنا اليوم ، تعنى الكلمة اكثر من هذا بكثير ، تعنى الفرق بين الحرية .. والاحتلال ، واكثر من هذا تعنى الفارق بين الحياة والموت لشعب من الشعوب .

ـ لك ان تولينى ثقتك الكاملة .

ـ لست أنا وحدى الذى يوليك هذه الثقة .. فهذا الشعب اقد منحك ايضا .. ثقته العمياء ..

وتوقف قليلا قبل أن يقول :

ـ سأقص عليك الآن قصة واقعية .. ولما كان لكل قصة عنوانها فان قصتى هذه اسمها «العملية فينوس» .

***

كان الراعى يجلس فى احدى حجرات منزله الداخلية الى بجوار جهاز عتيق للاذاعة ، يبدو صوت المذيع منه كصوت صادر من قلب الارض .. خافتا مهزوزا ...

وفجأة طرق باب المنزل ، فأوما الراعى الى زوجته ان تتانى قليلا فى اجابة الطارق حتى يخفى الجهاز فى مكانه ..

وحين عادت زوجته يتبعها الزائر ـ كابتن وايز ـ كان الراعى يجلس فى مقعده هادىء النفس رابط الجاش فوقف يستقبل القادم بابتسامة حاول أن تكون رقيقة فاجابه الكابتن يقول :

ـ سمحت لنفسي أن أزوركم في منزلكم .

واستدار وايز في المكان يتفحصه بامعان وفجأة واجه الراعي وهو يقول :

ـ حسنا .. ما الأنباء اليوم ؟

ـ انباء ياسيدي ! ! لا افهم ما تعني تماما ، ومن أين لنا بالأنباء ونحن لا نتلقاها الا منكم .

ـ لم الخوف يا ابني ؟.. لدى بعض الأنباء أحملها اليك ، لقد وقع الاختيار على جزيرة ارمورال لتكون منطقة تدريب لسرية من قوات العاصفة وستجرى لهم بعض التدريبات الخاصة بالانزال على شواطىء الجزيرة .. سيصلون غدا على المدمرة السريعة «لوبيك» وكما تعلم ، يتحتم أن تتخذ بعض اجراءات أمن غير عادية ويؤسفني أن تكون منها زيادة ساعات حظر التجول .

ـ ساخطر سكان الجزيرة بهذا ياسيدي ..

ـ يؤلمني ما اوقعتكم بريطانيا فيه .

الفصل العـاشر:

كان اشراق فجر اليوم الجديد على لندن يحملّ بعض الراحة والاطمئنان لسكانها ، بعد ليلة قاسوا فيها الاهوال ، كان «هيرمان جورنج» قد شرفهم بالزيارة المعهودة وما ان غادرهم ـ غير ماسوف عليه ـ حتى انطلقت صفارات الأمان تزف البشرى لنزلاء الملاجئ وتدعوهم للعودة الى حيـاتهم الطبيعية .. اذا كانوا مايزالون على قيد الحياة ، وان كانت دورهم ماتزال قائمة .

وفى سـاعة مبكرة من هذا الصباح كان هناك من يتقدم فى خطوات ثابتة قوية عبر ميدان «كنجز كروس» وما ان اقترب من المبنى الواقع على ناصيـة «هوايتهول» حتى اعترضه جنـدى الحراسة وهو يقول :

ـ اسعدت صباحا أيها الرقيب .. الى أين أنت ذاهب ؟

ـ الى وزارة الحربية ، وهاك بطاقتى وتصريحى ..

وتناول جندى الحراسة البطاقة والتصريح وشرع يقرأ مافيهما بصوت واضح ..

« رقيب الكسندر فوريس مطلوب فى وزارة الحرب بالغرفة ٥٧ فى تمام السابعة من صباح السبت ١٥ سبتمبر ١٩٤٠ »

***

فتح تروار لانجلى احـدى عينيه بحـذر وسرعان ما اغلقهـا ثانية . وبقى راقدا مغلقا عينيه هكذا لدقائق وهو يحاول أن يتذكر احداث الليلة المـاضية ، ولـكن ذاكرته لم تسعفه بشىء . كان

يشعر براسه يكاد ينفجر واحشائه تكاد تتمزق وسط أتون النار الذى كان يشتعل فيها .

كان يعبر شارع ستراند بعد ظهر الامس حين اعلنت ساعة « بيج بن » النصف بعد الخامسة . الوقت الذى تفتح فيه المشارب ابوابها مرحبة بعملائها . امثال ترولر هذا وغيره .. وتوالى تردده على هذه المشارب ، وكان فى بادىء الأمر يدقق فى الاختيار فلا يطرق سوى المكان اللائق .. ومع الوقت اصبح على حال لا تميز بين الجيد والغث ، ولا تعير اصوات القنابل اهتماما وهى تهز الاركان هنا وهناك ، ولا تشعر بأصوات المدافع وهى تمزق الفضاء ، ولا ترى عربات الاسعاف او الحريق وهى تنطلق مسرعة الى حيث يجب ان تكون .. جثة تتحرك ، لا تعى شيئا مما يدور حولها ..

وعلى صوت مفتاح يدور فى قفل الباب الحديدى ، فتح ترولر احدى عينيه ـ مرة اخرى ـ بحذر ثم اسرع يغلقها ثانية .. ثم عاود المحاولة مرات بعد ذلك حتى تبين انه فى قلب زنزانة حديدية يقف على بابها احد رجال الشرطة ..

***

ـ نيكول .. لقد حدث ما اثار دهشتى وحيرتى ، شخص قال انه «العم جورج» .. اتصل بى تليفونيا من وزارة الحرب وقال انه سيرسل لك احدى العربات وستصل بعد دقائق .. من تظنين هذا الرجل ؟

وما ان سمعت نيكول عمتها تقول «العم جورج» حتى اسرعت تقفز من فراشها وهى تقول كمن يحادث نفسه :

ـ بعد الامس اى شىء يمكن حدوثه .. وليس ببعيد فى المرة القادمة ان اجد غواصة فى انتظارى لتقلنى الى طوكيو ..

ـ لايمكنك الذهاب الى طوكيو يا فتاتى بلا افطار .. يا له من رجل طائش هذا «العم جورج» .

***

ما ان دخلت نيكول الحجرة ٥٧ حتى ادت التحية الى الرجل الجالس على مكتبه يستمع الى نشرة اخبار الساعة الثامنة وما ان رآها حتى استدار نحوها وهو يقول :

ـ مسز فاليز .؟ اسعدت صباحا .

ـ اسعدت صباحا يا سيدى .

ـ اسمى « العم جورج » فقط .. بلا سيدى ، هل تناولت افطورك ؟ .

ـ تناولت قدحا من الشاى فقط .

ـ اذن فشاركينى فى بعض هذه الشطائر .

قالها وهو يبتسم ويدعوها الى الجلوس ثم يقول :

ـ ان الوقت مبكر بعض الشىء ، ولكننى اردت ان ابادلك حديثا خاصا قبل ان تعودى للقاء الرائد مورلاند ، وحين اقول حديثا خاصا فاننى اعنى ما اقول وينطبق هذا على اى شخص .. بما فى ذلك الرائد مورلاند نفسه .. اواضح هذا ؟

ـ تماما يا سيدى .

ـ متى ستلتقين به ثانية ؟

ـ كنا قد اتفقنا على ان نلتقى فى تمام العاشرة بمنزل « العمة هيلواز » ..

ـ اذن فلدينا من الوقت متسع .. اخبرينى ماذا تعرفين عن « العملية فينوس » ؟

وبدت الدهشة واضحة على وجه نيكول وهى تقول :

ـ « العملية فينوس » ... اخشى اننى لا افهم ما تقول .

ـ اذن فانت لا تعرفين شيئا عنها ؟

ـ كلا .. هلا اوضحت الامر يا سيدى .

ـ هل فى مقدورك تمييز صوت فالنتين مورلاند ؟

ـ اعتقد هذا .

قالها وهو يرفع سماعة التليفون ويطلب من عامل التحويلة أن يوصله بالرائد مورلاند فى فندق براون ، ثم استدار نحو نيكول واشار الى جهاز تليفون آخر فى الحجرة وهو يقول :

ـ حين يتم اتصالى به ، استمعى ـ من هذا الجهاز ـ الى ما سيدور بيننا من حديث .

وحين علا رنين جرس التليفون وجه العم جورج انظار نيكول الى التليفون الثانى وهو يرفع سماعة جهازه ويقول :

ـ فالنتين ..؟

ـ العم جورج ؟ اسعدت صباحا .

ـ طلبت منك بالأمس ان تخبر مس فاليز بشىء ما .. فهل فعلت ؟

ـ لقد فعلت بكل تأكيد ..

ـ اذن فليس هناك ما تجهله عنه ؟

ـ لا شىء بالمرة .. ولكن لماذا ؟

ـ اردت ان اطمئن فقط .. سانتظرك بعد ان تلتقى بصديقك صاحب اللحية ..

وما ان انتهى الحديث حتى تبادل العم جورج ونيكول ابتسامة ذات معنى واضح قبل أن يقول العم جورج :

ـ والآن .. هل انت على استعداد للحديث عن « العملية فينوس » ؟ .

ـ بكل تأكيد .. ايها العم جورج ..

***

فى ركن هادىء منعزل بمكتبة وزارة الحرب كان فالنتين مورلاند يتصفح واحدة من الخرائط العديدة التى كانت موضوعة أمامه على المائدة .. وما ان انتهى منها حتى استدار الى الرقيب الكسندر فوريس الذى كان يجلس الى جواره وقال :

ـ الكسندر .. هذه هى الخريطة التى تصلح لنا .. ادرسها جيدا حتى اعود اليك ، وبالمناسبة .. لقد رتبت لك لقاء مع عامل اللاسلكى بالوزارة ولرجو ان تتم ضبط جهازك عليه .. هل من اسئلة ؟ .

وبعد لحظة استغرقها اليكس فى التفكير اجاب بالنفى ..

وانتقـل فالنتين الى حيث كان تروار لانجلى يجلس وبادره قائلا :

ـ حسنا يا « ترو » .. هل نعـرف دورك تماما فى هـذه المهمة ؟ .

ـ بكل تأكيد يا سيدى ..

ـ ستعاوننا فى الوصول الى الشاطىء عند « بوان دى جوا » ثم تعود مباشرة الى بريطانيا . وفى الليلة التالية ستلتقطنا من نفس المكان على حاملة جنود مجهزة تجهيزا خاصا لهذه المهمة .. ستتلقى التلقين النهائى الكامل صباح الغد فى غرفة العمليـات المشـتركة وهناك سـتحدد التوقيتات النهـائية بالاشـتراك مع البحرية . حين تصل الى اكسكورد اليوم .. ابتعد عن الخمر .. هل من اسئلة ؟

ـ كيف نتصرف لو اننا وصلنا الى « ارمورال » فى الليلـة التالية ولن نجدكم ؟ .

ـ اذا لم تجدنا فى الوقت المحدود فمعنى هذا اننا فشـلنا ، وواجبك اذن العودة فى الحال .

ـ اعود واترككم على الجزيرة يا سيدى ؟

ـ تماما .. تعود وتتركنا .. فسندبر نحن امورنا بانفسنا ..

ـ سافعل مادامت هذه رغبتكم .

ـ حسنا .. عليك ان تسرع الآن لتلحق بقطار اكسفورد فى محطة بادنجتون .

حين غادر تروار الحجرة ، تنبه فالنتين الى انه كان يجلس بجوار نيكول طول الوقت .. وانه قد استغرق فى عمله تماما حتى

كاد ينسى امرها .. وحين التقت عيناها بعينيه اشرق وجهها بابتسامة وضحكت وهى تقول :

ـ هل جاء دورى يا سيدى ؟ »

وعلت ضحكته وهو يقول :

ـ معذرة يا نيكول .. والآن ماذا تريدين ان احضر لك معى من « ارمورال » ؟ .

ـ اريدك ان تعيدنى ثانية .. اريدك ان تعود بنا جميعا .. « الكسندر فوريس ، ترولر ، انت .. وانا .. وكذلك « فينوس » »

ـ ولكنك لن تذهبى معنا .. لن تصحبينا يا نيكول ..

قالها بثبات وحزم الرجل الواثق من نفسه وما يقول .

فاستدارت لتواجهه تماما ، وتوقفت لحظات استغرقتها فى تفكير عميق قبل ان تقول :

ـ حين سألتنى ما اعرفه عن « ارمورال » اخبرتك بالكثير لاننى لم اكن اعرف بعد قصة « العملية فينوس » .. والآن وانا اعرف القصة فاننى اؤكد لك أمرا واحدا .. أن هذه العملية سيكون مآلها الى الفشل ان لم تصحبنى معكم ، وسينتهى بكم الأمر بدونى اما الى معسكر اعتقال أو الى حفرة على عمق اقدام فى تراب ارمورال ..

ـ ولماذا تظنين انها ستفشل ..

ـ لانك لا تعرف الجزيرة ، وسكان الجزيرة لا يعرفونك سيشكون فى امرك ولن يثقوا فيك او فيما تقول وما من مخلوق سيقدم لك اى عون .. هذا امر اكيد ، اذا كنت ذاهبا لتعود بفينوس فانت فى حاجة الى عون .. فى حاجة الى ثقة الشعب وايمانهم بما تفعل ، اليك مثلا .. كيف ستتعرف على اماكن الحراس ؟

ـ اتعرفين انت اذن .. ؟

ـ لا . لا اعرف فى الوقت الحاضر فقط ، ولكن حين تطأ اقدامنا ارض الجزيرة فأى من رجالها سيقودنى الى ما أريد

الوصول اليه .. الامر الذى لن تستطيعه أنتَ .. هلا اوضحتَ لى لماذا لا تريدنى أن اذهب ؟

ـ لمـاذا لا أريدك ان تذهبى ؟

ـ لقد ذكرت لتوك اننا سينتهى بنا الامر الى معسكر اعتقـال أو الى حفرة فى تراب ارمورال .. فهل اقبل لك هذا المصير لو كنت رجلا ، لو كان شقيقك لوك مكانك الآن .. لاختلف الامر ؟

ـ ولمـاذا يختلف الامر ؟

ـ لأن الجنس يختلف ..

ـ وهل سيصيبنا غير ماقدر لنا ، هلّ سأكون هنا فى لندن ، أو فى غيرها فى امان ، الا يحتمل ان يصيبنى المكروه وانا جالسة أقود عربة تقلك او تقل زميلا لك ؟

ـ أحقا ترغبين فى الذهاب معى ؟

ـ نعم .. لأننى سأكون ذات فائدة لكم ، ولكنك اذا سألتنى هل ارغب انا .. نيكول فى العودة الى «أرمورال» فجوابى .. لا ..

ـ لمـاذا .. ؟

ـ وهل تحب ان تكون فى عرين الأسد او جحر الثعبان ؟

الفصل الحادى عشر

قبيل غروب الشمس بقليل . كانت مجموعة من اربعة اشخاص تسلك طريقها على أحد أرصفة ميناء بورتسموث متجهة الى حيث كانت ترسو احدى الغواصات ، وهناك كان القبطان فى انتظارهم ، وما ان التقى بهم وتأكد من شخصياتهم حتى دعاهم الى دخول الغواصة ، وتقدم امامهم يرشدهم الى الطريق .

كان القبطان ينظر الى نيكول وهى ترتدى سترة رمادية اللون وسروالا من التويد الأزرق ـ فى تعجب ودهشة وهو يتساءل فى نفسه عن سبب وجودها مع هذه الجماعة وعن السر الذى يحمل المسئولين على اشراكها معهم فى مثل هذه المهمة الخطرة .. واذ لم يجد جوابا لسؤاله ، هز كتفيه ـ بلا مبالاة ـ ولسان حاله يقول :

« ان وزارة الحرب تعلم ولا شك ما هى فى سبيله .. » .

ونظر القبطان الى تروار لانجلى الذى اختفت معالم وجهه خلف لحيته الكثة وأخذ يقارن بين هذه اللحية ، ولحيته هو ـ القصيرة المهذبة الأطراف ـ ويتساءل كم من الشهور استغرق نموها حتى بلغت هذا الحجم ..

وانتهت لحظات الصمت القصيرة التى سادت المجموعة وهم يرتشفون اقداح الشاى التى قدمت لهم ، وبدأ القبطان يشرح لهم المرحلة الاولى من العملية . والتى سيتولى هو فيها القيادة فيقول :

ـ سنبحر بعد دقائق .. واتوقع ان تكون رحلتنا سهلة ، ويتوقف هذا ولا شك على اصدقائنا قادة طائرات اللوفتهوف ، سنبقى على السطح قدر ما نستطيع حتى يسهل علينا ان نسلك

طريقنا وسط حقول الالغام ، واذا ما ظهر أصدقاؤنا .. وجب أن نغوص فى الحال الى الاعماق ، سنتوقف قرب شاطىء الجزيرة فى المنطقة المعروفة باسم خليج « بيتى بيجون » ، وبعد نزولكم الى القارب سننتقل نحن الى منطقة أخرى الى الشمال الغربى تدعى « روزى شوفال » ونبقى فيها فى سكون تام لمدة ثلاثين دقيقة فى انتظار صديقنا صاحب اللحية ، وحين نلتقطه سنعود مباشرة الى انجلترا .. أهذا واضح ؟ »

فاجابه فالنتين يقول :

ـ غاية فى الوضوح ..»

وحين بدأت آلات الغواصة تدور ، غادر القبطان المكان متجها الى مقر قيادته ..

***

وفى الغرفة الصغيرة ـ فى قلب الغواصة ـ بقى فالنتين واقفا الى جوار الكسندر فوربس ولانجلى تورلو يتدارسون معا الخريطة الموضوعة أمامهم على المائدة .. وفى صوت ثابت النبرات توجه فالنتين بالحديث الى فوربس قائلا :

ـ « اليكس » .. هل تظن الآن أن فى مقدورك أن تجد طريقك بسهولة حول « ارمورال » ؟ .

ـ بلا شك .. ما دامت هذه الخريطة دقيقة ..»

ـ وأنت يا لانجلى ؟

ـ ألا تكفينى خبرتى بالبحر ؟ »

ـ فعلا .. انها كل ما نطلبه منك ..»

ـ أتذكر التوقيعات المحدودة فى الخطة ؟ »

ـ نعم ..

ـ هلا أوضحتها بايجاز ؟ »

ـ ستكون انت ومس نيكول وفوربس ومعكم البقرة وقت

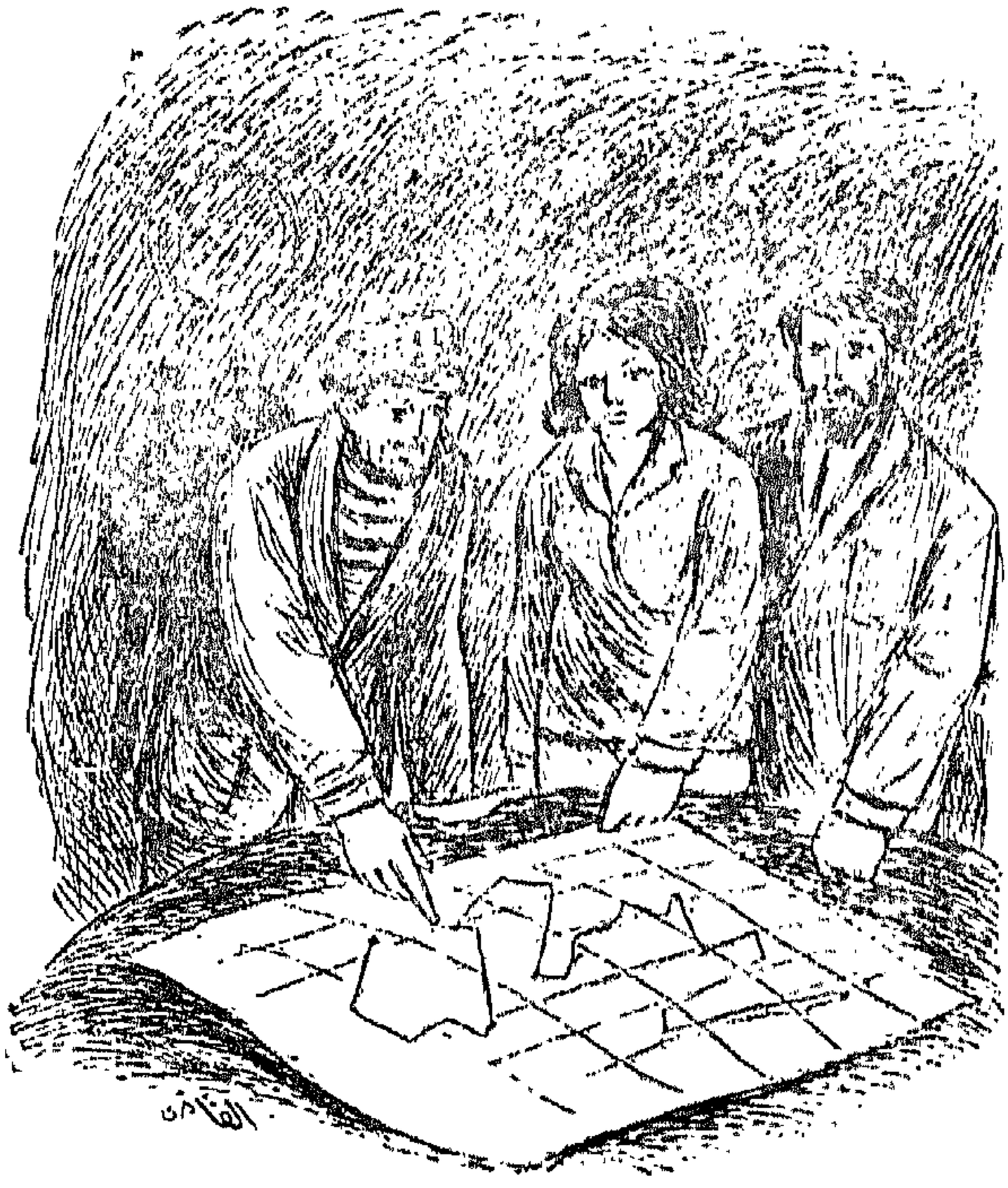

ارتفاع المد ـ اى حوالى النصف بعد العاشرة من مساء الغد ـ عند « بوانت دى جوا » فى انتظار من ينقلكم الى الباخرة .

وفى لهفة وقلق ظاهرين جرت أصابع يديه وسط شعيرات ذقنه قبل ان يقول :

ـ بحق السماء لاتتأخروا عن هذا الموعد ، فالمد لايستمر طويلا فى هذه المنطقة .. والرياح ليست دائما مستقرة ..

ـ سنكون هناك فى الموعد المحدود .. فلا تقلق ..

وقطع عليهم الحديث صوت حاد صادر من مكبر الصوت يقول :

ـ استعدوا سنطفو الى سطح الماء »

فعلقت نيكول قائلة :

ـ هل وصلنا ؟ »

ـ أظن ذلك .. »

وسرعان ما غادرهم ثرولى متجها الى حيث كان يقف القومندان ليكون الى جواره وقت ارساء العواصة »

الفصل الثاني عشر

كان صوت مجدافى القارب المطاط الذى كان تروار عائدا به الى الغواصة ، هو الصوت الوحيد الذى يصل الى آذان فالنتين وجماعته وهم وقوف على الشـــاطىء يراقبون القارب وهو يبتعد عنهم ..

وفى همس توجه فالنتين الى نيكول بالحديث قائلا :

ـ لقد اندمجنا تماما فى العملية ..

وسكت قليلا قبل أن يقول :

ـ العدو أمامكم .. والبحر خلفكم ..

فأجابته نيكول تقول :

ـ وهل فى هذا ما يغير من الأمر شيئا ؟ ..

والتقط يديها بين يديه ، كانت أشد برودة من الثلج ، وكان يشعر بها ترتجف م. حاول أن يشعرها بالطمأنينة التى كانت تفتقر اليها فى هذه اللحظات ، وعمل على أن يعيد اليها الثقة فى النفس وفى المجموعة .. الأمر الذى كانت تحتاج اليه ، وحين انتظمت أنفاسها وعاد الدفء الى أصابع يدها ، وأشرقت الابتسامة على وجهها ، ازدادت قربا من فالنتين وهى تقول :

ـ سأتقدمكم الى هـــذه الربوة ، خشية وجود أحد الحراس هناك ..

ـ وما العمل ان كان هنام من يقوم بالحراسة ؟ ..

ـ سأتولى أنا والكس أمره .

وتحرك الثلاثة فى الظـــلام ، وما أن اطمأنوا الى خلو الربوة

حتى تقدمت نيكول الجماعة لترشدهم الى الطريق .. بعد أن اطمأنت نفسها وهدأت اعصابها ..

كانت هذه هى بداية المغامرة .. وكان الطريق امامهم مازال طويلا .. وكان لابد ان يحققوا ماجاءوا من اجله ، مهما كانت المسيرة صعبة .

وأخذت نيكول تتحسس طريقها فى سكون وحذر . يربط ما بينها وبين فالنتين والكس حبل طويل حتى لا يضلا الطريق وسط هذا الظلام الحالك .

وكانا يتبعانها فى سكون وبلا تدخل ، وكانت هى سعيدة بهذه الثقة المتناهية التى وضعاها فيها .

وتوالت معالم الطريق امام عينى نيكول وتتابع شريط الذكريات فى ذهنها ..

هذه ساحة بركة البط ، وهذا منزل بيير وجوليت .. لماذا هذا الضوء الخافت الذى ينبعث من خلف الستائر وقد اعتادوا الرقاد مبكرا .. وولدهما جورج .. هذا الشيطان الصغير الذى كانت تسعد بصحبته كثيرا . وهذه مزرعة روجيه .. ترى كيف حال زوجته لوسى الآن .. هل زالت عنها ازمة الربو التى كانت تعانيها ؟. وهذه دار الأرملة مادلين جوبليمز التى كانت تنتظر عودة زوجها على الشاطىء كل مساء بعد أن خرج الى الصيد هو وابن أخيه وضاعا وسط المحيط الهادر ..

وسلكت الجماعة طريقا وسط الحقول الممتدة حتى وصلت نيكول الى حيث يقوم جدار متوسط الطول وهناك انتظرت فالنتين والكس حتى وصلا ، وما أن اطمئنوا الى خلو المكان من أى عيون ترقبهم حتى اسرعوا يرتقون الجدار فى حذر وسكون .

وتوقفت الجماعة من جديد تنصت فى حذر .. قبل أن تهمس نيكول وهى تشير الى بناء مرتفع قليلا تنبعث منه بعض الاضواء الخافتة ،

ـ هذا قصر الحاكم ..
فهمس فالنتين يقول :
ـ والى يساره قليلا .. « معبد فينوس » ..
فحاولت نيكول أن تكتم ضحكة بدرت منها وهى تقول :
ـ تماما .. « معبد فينوس » ..

ـ اذن فعلينا أن نقطع هذا الطريق ونحن على مقربة من القصر لنصل الى فينوس ..
ـ نعم ، لا نستطيع تجنب عبور هذا الطريق ..
ـ أمامنا وسيلة واحدة .. هلا جلسنا قليلا حتى أوضح فكرتى .

وجلسوا على الأرض يتبادلون الرأى ، ويتدارسون الموقف حتى وصلوا الى قرار .

وفى هذه اللحظة بدا كما لو أن كوكبا قد انفجر فى كبد السماء وتهاوى ـ وبريقه يخطف الابصار .

ـ وشعرت نيكول بيد فالنتين تتحسس يدها وهو يقول :
ـ نيكول .. هل شاهدت هذا ... ؟
ـ نعم ...
ـ هل تمنيت أمنية ..؟
ـ طبعا .. وأنت .. ؟
ـ وهل يفوتنى هذا ..
ـ يجب الا تخبر أحدا بها .. والا فلن تتحقق ..
ـ هذا صحيح ..
ونهض فالنتين على قدميه وهو يقول :
ـ علينا أن نذهب الآن ..

وتابعت الجماعة سيرها ـ فالنتين فى المقدمة تتبعه نيكول فى الوسط ، يسترها الكس فى الخلف ـ فى خطوات حذرة متلصصة فى ستر السياج الممتد والأشجار الوارفة الى ان وصلوا الى انحناءة الطريق خلف القصر .

وتنبه احد الحراس الى اصوات اقدام قريبة منه ، وركز كل حواسه فى متابعة هذه الأصوات والبحث عن مصدرها . ولم يطل به الامر ، فقد كانوا يزدادون قربا منه ـ لحظة بعد اخرى ـ ولم تمض ثوان حتى كانت جماعة من جنود العاصفة ـ التى تجرى تدريباتها فى طول الجزيرة وعرضها ـ تعبر الطريق امام الحارس وما ان تبادلا التحية التقليدية حتى عاد الحارس الى هدوئه . وفى هـذه اللحظات كانت الجمـاعة قد نجحت فى عبور الطريق خلف القصر ..

ولم تمض لحظات حتى كانت يد نيكول تتحسس قفـل باب الحظيرة .. وما ان انفرج قليلا حتى اسرعت الى الداخل وخلفها فالنتين واليكس .

وفى وسط الظلام الحالك ، رقدوا جميعا على الأرض يلتقطون انفاسهم ، ويستردون السيطرة على أعصابهم التى كادت تتمزق .

وكانت نيكول اول من تكلم حين طلبت من فالنتين مصـباحه الكهربى ، وفى وسط شعاع الضوء المنبعث من هذا المصباح وقعت انظارهم على بقرة ترقد وسط الحظيرة ، وحين وقع الضوء على عينيها رفعت راسها فى تراخ وكسل وهى تتساءل من القادم فى مثل هذا الوقت من الليل ، وكما لو ان نيكول ارادت ان تجيبها عن سؤالها ؛ ارتمت عليها واحاطت عنقها بيديهـا ـ فى نشـوة وفرح ـ وهى تقول :

ـ « فينوس » .. لقد عدنا اليك ، وسنصحبك معنا .. لن نتركك بعد اليوم .

الفصل الثالث عشر

واشرقت الشمس وبزغت اشعتها تبدد الظلام الذى كان يطوى الجزيرة . وتعالت اصوات الطيور المغردة مهللة وهى تستقبل ضوء النهار قبل أن تنطلق متحررة ، بعد ان زال القيد الذى كان يفرضه الظلام عليها .. وفتحت ابواب .. خرج منها البعض سعيا وراء لقمة العيش ، مستغلا الساعات القليلة التى يستطيع فيها ان يجول على جزء من ارض بلاده ، دون أن يعترض حارس يحد من حريته .. واستيقظ الراعى ووقف فى نافذة غرفته يملأ رئتيه بنسمات الصباح الباردة .. لا يدرى ما تخبئه الساعات القليلة القادمة من مفاجآت .

وعبر احدى نوافذ الحظيرة ، قفز الى الداخل قط سيامى رمادى اللون .. ووقف يتثاءب فى كسل ظاهر وهو يبحث عن مكان يرقد فيه ، وفى جولته القصيرة التقى بجسد مستغرق فى سبات عميق فوق كومة من الدريس ، وسرعان ما تعرف على صاحبته فاخذ يمسح ذراعيها وساقيها فى فرح ونشوة ، الى ان تنبهت الراقدة وفتحت عينيها فى بطء ظاهر .. وحين اكتملت يقظتها احتضنت القط بين يديها وهى تصرخ وتقول :

ـ باتشى .. كيف جئت الى هنا ؟ .

واستيقظ فالنتين ، ثم الكس . وتبادل الجميع تحية الصباح ، ونظر فالنتين الى ساعته ، وقال :

ـ الكس .. يجب أن تسرع فى الاتصال بلندن .. امامك ثلاث دقائق فقط . ولا تخش شيئا ، فليس فى الجزيرة اجهزة للتصنت اللاسلكى .. ولن يتنبهوا الينا او يكتشفوا امرنا ..

وفي الوقت المحدود اخذ الكس يملي رسالته ولـكنه سرعان ما توقف . فقد كان هناك من يقترب من الحظيرة فى خطوات بطيئة كانت تبدو واضحة فوق الطريق الصخرى .. وسرعان ما انفرج باب الحظيرة ، ودخل القادم واغلق الباب خلفه فى هدوء ، واتجه مباشرة الى حيث كانت ترقد فينوس ـ ومن فوق راسه ـ كانت عيون أفراد الجمـاعة ترقبه فى حرص وحـذر وهو يتقدم نحو البقرة وينحنى فوقها يربت عليها فى عطف ظاهر ..

وتضحك نيكول من كل قلبها ، وفى نشوة وجذل تقول وهى تتجه نحو السلم الخشبى المثبت فى الجدار :

ـ انه « باتست » ، لاتقلق .. تابع ارسالك وسانزل للقائه ..

وفى لحظات .. كانت الى جواره ، وما أن تمالك العجوز نفسه ، وافاق من الذهول الذى اصابه حتى احتواها بين يديه وهو يقول :

ـ من أرى .. أهذه أنت يا سيدتى .. أحقيقة ما تراه عيناى .. مدموازيل نيكول .. كيف عدت ؟

ـ نعم يا باست .. انني نيكول .. كيف حالك ؟

ـ ماذا تفعلين هنا يا سيدتى ؟

ـ اهدأ .. وساقص عليك كل شىء ..

ولكنها سرعان ما توقفت واسرعت ترتقى درجات السـلم الى مخزن الدريس الذى كانت ترقد فيه مع فالنتين والكس ..

فقد كانت هناك اصوات أقدام تقترب من الحظيرة .. قوية ثابتة حازمة ، لا يمكن أن تكون الا لشخص يعرفونه تماما ويتحتم أن يكونوا على حذر منه ؛

وتوسط القادم الحظيرة ، وما أن وقعت انظاره على بايتست حتى اتجه اليه مبتسما وهو يقول :

ـ أسعدت صباحا يا بابتست ..

ـ أسعدت صباحا يا سيدى القومندان ..

ـ كيف حال عروستنا اليوم .. أتبدو على خير ما يرام ..»
فاستدار حولها يتفحصها بعينيه قبل أن يقول :

ـ يبدو أنها ستضع مولودها اليوم أو غـــدا وأظنه سيكون ذكرا .. ألست معى فى الراى ؟

واذ لم يتلق من العجوز جوابا استدار نحوه واذ لمس حيرته ولهفته صرخ يقول :

ـ ماذا بك ايها الرجل ؟ لقد كمن شـــاهد شـــبحا .. تماما كما كان ليونيل فاليز بالأمس .

وبصوت بدت الرجفة فيه واضحة أجاب « بابتسمت » :

ـ لم ار شيئا يا سيدى .. ابدا لا شيء اطلاقا ..

ـ اذن فقد كانت الجرعة قوية ليلة الأمس .. امازلت تفرط فى الشراب ؟ .

ثم توقف قليلا قبل ان يقول :

ـ لاتخرج بها حتى يجف النـــدى عن العشب ثم اريدها بعد ذلك فى المرعى المجاور للقصر .. حتى لا تغيب عن عينى هـــذا اليوم ايضا ..

وتوقف يربت على عنقها وراسها ويبتسم ـ ابتسامة خالها ابتسامة النصر ـ قبل ان يقول :

ـ يا غالية .. بعد ايام قليلـــة ستاكلين عشـــب وســـتفالية الدسم .. أنت وولدك النبيل ..

كانت نيكول ترقد فى مخبئها وقد انثنت ساقها فى وضع لم تســتطع ان تتحمله طويلا وبدات تشـــعر بآلام حادة تكاد تمزق عضلاتها .. فاخذت ـ فى حرص وحذر ـ ترفع ساقها وتدفعها الى الخلف فى سكون .. ويشاء الحظ العاثر أن تصطدم قدمها بدلو اخذ يتقلب محدثا صوتا كدوى الطبول الى أن يتوقف على راس السلم لحظات قبل أن يستدير ثم يتهادى فوق درجات السلم واحدة بعد الأخرى ، وفى ثروة كنزوة الشباب الطائش ، تخطى

الدرجات الاخيرة بقفزة واحدة وليستقر وسط الجظيرة .. تحت قدمى القدمندان ..

وسرعان ما اشهر القومندان سلاحه وهو يندفع نحو السلم .. ولكنه توقف فجأة وعلت الابتسامة شفتيه ثم انفجر ضاحكا وهو يرى القط السيامى واقفا على راس السلم ..

وما ان غادر القومندان الحظيرة .. وتلاشى صوت وقع اقدامه .. حتى قفز فالنتين الى جهاز اللاســلكى ليعاون الكس فى اتمــام الاتصال بلندن بعد ان ضاعت دقائق كاللآلىء ..

وبعد ان ختم الكس ارساله ، واطمــان فالنتين على رسالته الى العم جورج .. بعــدها فقط بدأ يستعيد ما حدث ويتندر بالمعجزة التى وقعت ، وحين بحث عن القط وجده يرقد فى هدوء وسعادة بين يدىَ نيكول .. وهو ينظر اليه نظرة حانية تكاد تقول ان اصدقاء نيكول هم ايضا اصدقائى .. واشرقت الابتسامة على وجه فالنتين واتجه نحو نيكول وهو يقول :

ــ الى العمل ايها الرفاق ..

ثم وجه حديثه الى نيكول يقول :

ــ ستذهبين الآن لمقــابلة راعى الكنيسة وبحسن ان تسلكى طريقا وسط بساتين الفاكهة وفى ستر الاشجار والسياجات ، كم تستغرق مقابلتك له ؟ .

ــ لا ادرى تماما .. ربما نصف ساعة او اكثر قليلا ، فلدىّ الكثير الذى اريد بحثه معه ..

ــ فلنقل ساعة .. سأغادر هذا المكان انا والكس ــ كل علــى حدة ــ وسيسلك كل منا طريقا منفصلا ينتهى فى «بوان دى فوشى» وسنلتقى جميعا هناك بعد ساعة واحدة بالضبط .. وعلى ضوء ما تحملين من معلومات .. سنقرر ما سنفعله بالتفصيل .. أهذا واضح ؟ .

ــ نعم ..

ـ حسنا سنضبط ساعاتنا الآن ثم تذهبين أنت فى رعاية الله ،
ثم نوقف قليلا قبل أن يقول :
ـ بقى ما أريد تأكيده .. اذا صادف أحدنا سوء الحظ ولم يستطع اللحـاق بالباقين فعليهما أن يتابعا المهمـة بلا توقف أو انتظار .. مهما حدث ..

***

استيقظ راعي أرموزال مبسكرا كما اعتاد واتجه نحو حظيرة صغيره للدواجن كانت فى الجزء الخلفى من حديقة المنزل ، وبعدا أن قدم لها طعامها الذى كان يحمله ، وبدل المـاء الذى كان أمامها إلى الاناء .. أخذ يبحث عن البيض هنا وهناك .. وكما اعتاد كل صباح عاد الى المنزل حاملا ما يكفى افطاره هو وزوجته .

وما أن ولج الباب الخلفى للمنزل حتى سمع زوجته تدعوه واللهفة بادية على صوتها فلما أجابها مستوضحا بادرته تقول :

ـ بحق السماء هلا أسرعت ؟

ـ مابالك .. أمريضة أنت ؟ .

ـ لا لست مريضة .. فقط اشعر بالخجل من نفسى ومن كل ما حولى ..

قالتها وهى تلتقط يده بين يديها المرتجفتين وللحظات بقيت عاجزة عن الكلام وهو يحاول أن يستخلص منها شيئا دون جدوى ، وحين تمالكت نفسها قليلا صرخت تقول :

ـ يا الهى .. الم تغتسل بعد .. وهذه الثياب الرثة .. والحذاء القذر ، أنت راعى مورال ، كيف تبدو هكذا أمامها ..

ـ أمام من ؟ بالله خبرينى ...

ـ أسرع وارتد حلتك الجديدة ، ولا تنس الياقة المنشـاة وربطة العنق . أعطنى هذا الحذاء لأقوم بصقله ... بالله اسرع ..

ـ ماذا حدث ياامرأة .. ما هذا الذى تقولينه ..

ـ ماذا حدث ؟ ساخبرك بما حدث ... انها هنا ...

ـ ومن هى ؟

ـ مس نيكول .. لقد عادت الينا ..

***

ـ لقد تجاوزت الوقت بسبع دقائق ..

ـ يؤسفنى هذا .. فلم يكن فى مقدورى أن أتجنب هذا التأخير بعد أن عجزت عن اقناع زوجة الراعى .. لقد حملته على أن يرتدى ثيابا لائقة قبل أن يقابلنى . فالنتين ، أتدرى ماتعنيه العودة الى أناس بسطاء كهؤلاء .. أشعر بنفسى ضعيفة هزيلة وأنا الى جوارهم .. انهم ملح الأرض ، وفى مقدورك أن تثق فيهم وأن تعتمد عليهم فلن يصيبك مكروه منهم ولو كان فى الأمر هلاكهم ..؟

ـ كنت قلقا عليك .. والآن ماذا تحملين من أنباء ..؟

ـ الى بالخريطة أولا ..

ـ هاهى ذى .. ولن تكون فى حاجة اليها بعد ذلك ..

وشرعت نيكول توضح ما حصلت عليه من معلومات فقالت :

ـ تتخذ عناصر الحراسة أماكنها كل ليلة من الغروب حتى شروق شمس اليوم التالى فى تسع نقط على رأسها بوانت دى جوا ومن حسن الطالع أن بيتى بيجون التى جئنا منها بالأمس لا تقوم عليها حراسة .. ويربط هؤلاء الحراس بمركز قيادتهم فى القصر بخطوط تليفونية ميدانية .. كما قام الألمان ببث الألغام فى بعض المناطق (أشارت عليها) وهى محاطة بالأسلاك الشائكة . الجنود جميعهم يعرفون اللغة الانجليزية .. ويقودهم من يدعى الكابتن وايز وهو من شاهدناه فى الحظيرة هذا الصباح ، وكما لاحظتم فهو يحب فينوس ويريد أن تكون انظاره طول اليوم .. وهذه هى العقبة الأولى كما أظن .. أما العقبة الثانية فهى رقيب يدعى الوجيل يتصف بالقسوة والأفق الضيق .. وتقيم بالجزيرة الآن قوة من جنود العاصفة .. هم من طبقة مختارة من الجنود الألمان ولذا

يشعرون بالتعالى على غيرهم من الجنود وليس بينهم وبين جنود واير سوى الحب المفقود .. وقد يكون فى هذا بعض الخير لنا ..

ـ وما هى العقدة الرابعة ..؟

ـ انها أسوأها جميعا ... هناك مدمرة جيب المانيه تسمى « لوبوك » من أحداث قطع الأسطول الألمانى وأقواها تسليحا وأشدها سرعة ..

فأجاب فالنتين يقول :

ـ انها أسوؤها جميعا بلا شك ، علينا أن ننقل هذا الى العم جورج فى الحال ..

قالها وفى ذهنه دوامة تعصره وتكاد تشل تفكيره .. انه يعرف العم جورج تمام المعرفة ، ويعلم أنه لن يضحى بأى سفينة تأتى لتنقلهم بعد أن يعلم بوجود هذه المدمرة فى مياه الجزيرة .. الو انه كان وحده هو والكس .. لو أن نيكول لم تصحبهما فى هذه المهمة ..

وقطع الكس على فالنتين حبل تفكيره وهو يقول :

ـ مستر فالنتين .. كيف تكتب اسم هذه المدمرة ..؟

ـ لوبوك .. ل ـ و ـ ب ـ و ـ ك .. ولكن لماذا .. ؟

ـ أشعر أن رسالتك الى « العم جورج » ستتضمن شيئا عنها ..

ـ هذا صحيح .. ولو أننا سنتابع المهمة كما لو أن هذه المدمرة بعيدة عنا تماما ، وببساطة .. يجب أن نتناساها كلية ..

واستغرق فالنتين فى التفكير لحظات قصيرة قبل أن يقول :

ـ الكس .. ستسلك طريقك المحدود هذا المساء وستقوم بقطع الاتصال التليفونى بين القصر ويوانت دى جوا فى الوقت المعين .. سأتوجه الى « باى دى أوندين » بعدك بخمس دقائق .. وسنلتقى هنا ثانية قبل الساعة الواحدة تماما ..

ثم استدار نحو نيكول وهو يبتسم ويقول :

ـ نيكول .. ماذا تقترحين لشغل ساعات هذا الصباح ..؟

ـ ارجو الا تسخر مما سأقوله ، فالأمر جد خطير .. لقد تبادلت الرأى مع الراعى حول امكان نقل فينوس من مكانها الحالى بعيدا عن انظار القومندان واستقر رأينا على أمر سأحدثك عنه .. فهل انت مصغ إلى ؟

الفصل الرابع عشر

وأخيرا استيقظ ليونيل فالين ، وفتح عينيه وهو يحاول أن يتجنب أشعة الشمس التى كانت قد غمرت الحجرة ..

وغادر الفراش فى بطء وتراخ واتجه نحو المطبخ ـ وهو عارى القدمين ـ ليعد لنفسه قدحا من القهوة ـ الأمر الذى كان لا يقدم عليه كثيرا بعد أن رأى أن ما لديه فى وعاء البن قد أخذ يتضاءل يوما بعد يوم .. وما من أمل يبدو أمامه فى أن يحصل على كمية أخرى جديدة منه ..

واتجه نحو النافذة ـ قتلا للوقت ـ حتى يغلى الماء الذى يعده لقهوته .. وسط السكون الذى كان يسود الجزيرة فى هذا الوقت من الصباح وصل الى أذنيه صوت غناء بدا خافتا فى أول الأمر ثم أخذ يرتفع حين اقترب المنشدون .. وكانوا فصيلة من الجنود الألمان تأخذ طريقها نحو القصر . لم يكن ما سمعه أغنية رقيقة تليق بنسمات الصباح العذبة ، بل كان نشيدا زاخرا بكلمات الحرب والنصر والموت ، وكان الجنود يرددونه فى نغم يندفع من حناجرهم عاليا قويا ، ويتموج مع وقع أقدامهم القوية على أرض الطريق الصلبة ثم رأى شيئا آخر .. رأى فتاة تنتقل مسرعة الى الجانب الآخر من الطريق ولكنها لا تنجح فى تجنب رتل الجنود ، وإذ تقع أنظارهم عليها .. يعلو صفيرهم وتنطلق نداءاتهم ... ويلوحون لها ويهللون ، وهى أيضا تلوح لهم بيدها مودعة .

وأغلق ليونيل نافذته وعاد الى المطبخ .. ولم تمض لحظات حتى سمع وقع أقدام تقترب من منزله ثم سمع أزيز الباب الخارجى وهو

يفتح ولم تمض لحظات حتى كانت نيسكول واقفة امامه .. وهى تبتسم وتقول :

ـ لقد كانت رغبتك في ان اعود سريعا .. وهأنذى جئت ...

***

سلك فالنتين مورلاند الممر الضيق الذى كان يؤدى الى الشاطىء الرملى المســـجل على الخريطة تحت اسم « باى دى لوندين » .. وتوقف فى نهـاية المنطقة الصخرية التي تشرف عليه ـ وهو يمعن النظر فيها حوله من جمال .. وتتوه أفـكاره بين مياه المحيط الزرقاء تكسوها ـ هنا وهناك ـ طبقات تشبه الزبد المضروب » وبين رمال الشاطىء الممتدة كبساط أصفر تحت الأقدام وشجيرات الـكرز بأوراقها الخضراء وثمارها الحمراء .. هل يصدق العقل انه نزل الى هذه الجزيرة ليلة امس وسط الظلام ومن قلب غواصة، اصيحيح أنه يقف الآن بين أعداء لن يترددوا فى الفتك به لو انهم اكتشفوا أمره ..

وافاق الى نفسه حين احس أن الوقت يسرقه وتنبه الى انه انما جاء لمهمة يتحتم ان ينجزها بسرعة .. فخلع عنه حقيبته ووضعها الى جواره وبدأ يفحص الأرض التى كان يقف عليها ، والمنطقة التى كان قد وصل اليها بعين الخبير الذىجاء يطلب شيئا محدودا .. ولم تمض لحظات حتى كان قد حدد ثلاثة اماكن تشكل رءوس المثلث وبدأ فى حرص وحذر يرفع ما فى الحقيبة من مفرقعات ثم قام بضبط أجهزة التفجير الثلاثة التى كان يحملها على توقيت معين بحيث تعمل على التوالى وبفاصل دقائق محدودة. وما أتم دفن المفرقعات وأجهزة التفجير الآلية فى الأماكن التى حددها وتأكد من أن الاعين لا يمكن أن تكشفها حتى اخرج آلة التصوير التى كانت بالحقيبة وشرع يلتقط بعض الصور اشباعا لهوايته .

وفجأة شـــعر بفوهة مسدس تلتصق بظهره وصوت يأمره بالتسليم ، وحين استدار رافعـــا يديه لأعلى صرخ الطفل وعلت ضحكاته فبادره فالنتين يقول :

ـ من تكون ايها الفارس الشجاع ؟
ـ ولماذا اخبرك باسمى .. من تكون انت ؟
ـ ولماذا اخبرك أنا باسمى .. هل اخفض يدى ؟
ـ لا بأس .. ولكنى انذرك فسلاحى معى .. لقد شاهدتك ليلة الامس انت ومس نيكول وصديقكما الثالث ، فأنا اعيش فى منزل العم بيير .. وجدى هو راعى الكنيسة .. لقد شاهدتكم يمينى راشى وانتم تعبرون المزرعة .
ـ كان من الواجب ان نكون اكثر حرصا حتى لايرانا احد .
ـ لا تقلق .. فصديق مس نيكول صديق لنا ايضا .
ـ هذا جميل منك .. والآن ما اسمك ؟
ـ خبرنى انت اولا ..
ـ ولماذا ؟
ـ لاننى انا الذى يحمل السلاح .
ـ لقد فاتنى هذا .. اسمى فالنتين .
ـ وانا جورج .. والآن وقد تعارفنا فلا داعى لهذا السلاح .
ووضع جورج لعبته الى جواره بعد ان دعا فالنتين الى الجلوس معه .. ثم قال :
ـ لقد غادرت مس نيكول منزل جدى واتجهت نحو منزل مستر ليونيل ، وصديقك ـ لا ادرى ما اسمه ـ بالقرب من «بوانت دى جوا» الآن ، انه رجل ماهر فهو يقف فى مكان لايستطيع الالمان أن يكشفوه فيه .. انه امهر منك واكثر حرصا ، فانت الآن فى مكان مهدد مكشوف .
ـ ولماذا اذن ؟..
ـ لأنك لم تجد أمامك ـ وقت الحاجة ـ سوى طريق واحد للهرب ، فماذا تفعل لو جاء الالمان منه ؟
ـ ولماذا ياتون منه ؟
ـ لانه الطريق الوحيد الى هذه المنطقة التى يستحمون فيها كل يوم وفى مثل هذا الوقت .

وكان الوقت ـ فعلا ـ قد أصبح متأخرا وكانت فرصة الهرب قد ضاعت .. فقد كان صوت انشاد الجنود قد أصبح واضحا.. وهم يزدادون اقترابا من الشاطىء ، فصرخ الطفل يقول :

ـ اسرع .. اقفز الى المـاء ، فهذا سبيلك الوحيد الى النجاة ساخفى ملابسـك وحاجاتك وسألتقى بك هنـاك .. عند هـذه الصخرة البعيدة ..

ولم يتردد فالنتين ، وفى لمح البصر كان قد خلع عنه ملابسه وقفز الى المـاء بينما أصوات الجنود تعلو وتعلو تملأ الجو وعيدا وتهديدا .

وصرخ قائد القوة فى وجه جورج يقول :

ـ لمـاذا وقوفك فى هذه المنطقة الممنوعـة ، ماذا جئت تفعل هنـا ؟

ـ انتظر وصول الانجليز .

ـ ومن يكون هذا الرجل الذى يسبح هناك ؟

ـ لابد أنه ونستون تشرشل .

وتعالت ضحكات الجنود وهم يرون الطفل يعدو مبتعدا .. بعد ان اطمأن على فالنتين وهو يراه قد اختفى تماما عن انظـار الجنود .

***

وبقى ليونيل ينظر الى نيكول ، لا تصدق عيناه انه يراها أمامه وانه يسـمعها تخاطبه ، وفى حنان وعطف اقتربت منه وهى تقول:

ـ أليس من الافضل ان ترتدى شيئا فى قدميك وان تضـع ملفحه على كتفيك حتى لاتصاب بنزلة برد ؟

ـ نيكول .. احقيقة ماتراه عيناى ؟

ـ نعم .. اذهب اولا وارتد شيئا .

ـ الن تتلاشى اذا غبت عنك لحظة واحدة ؟

ـ نعم .. سأكون فى انتظارك .. أعدك بهذا .

فأسرع الى حجرة النوم وارتدى أول شيء وقعت عليه عيناه ، وحين عاد وجد نيكول تجلس فى هدوء وسكون .. وبدت له كما لو أنها لم تغادر أرمورال ابدا وان العام الذى انقضى وهى بعيدة عنه كان كابوسا ثقيلا افاق منه وانزاح عن كاهله . فاقترب منها وهو يقول :

ـ أكنت أنت من لوح بيده للجنود منذ لحظات ؟

ـ نعم . لم أستطع ان اتجنبهم ورأيت انه من الأسلم أن أجاريهم .

ـ لم يخطر فى ذهنى أبدا أنك انت .. نيكول ، من كانت تقف هناك .. حدثينى كيف جئت ؟ ماذا تفعلين هنا ؟

كانت هى أيضا لاتتصور انها افترقت عنه منذ أكثر من عام ، وكانت تتخيل انها كانت بالأمس فقط ـ ترتقى معه درجات السلم الى برج الكنيسة ، وأنها فى الأسبوع الماضى فقط تدثرت بأستار نافذة حجرتها وأعتذرت لمربيتها عن تناول الطعام لأنها ذاهبة لتتزوج ليونيل ابن عمها .

ومع هذا .. فقد مضى على فراقهما أكثر من عام .. كان يبدو أكثر شحوبا وهزالا مما كان حين تركته وكان لايستطيع السيطرة على يديه المرتجفتين .. وكانت الآيام قد خطت آثارها حول عينيه لقد كان «ليونيل» آخر .

وتقدمت نحوه والرغبة تملؤها فى أن ترفع شعر رأسه المدلى على جبينه ـ كما كانت تفعل فى الأيام التى انقضت واندثرت ، ولكنها توقفت فى حنان وأجابته تقول :

ـ من أين جئت من لندن ؟ كنت هناك حتى مساء الأمس ، قابلت والدتك ، ظنت اننى ذاهبة الى طوكيو .. لم استطع ان أبوح لها بعزمى على العودة الى الجزيرة .. فقد جئنا فى غواصة ورسونا عند بيتى بيجون بعد منتصف الليل بقليل ..

ـ القولين جئنا .. من جاء معك ؟ الا تدرين ان الالمـان هنا ، في كل مكان ؟

ـ بلى . اعرفك ذلك . ولهذا جئنا في غواصة وفي سـكون الليل وظلامه .. جاء معي رجلان .. الرائد فالنتـــين مورلاند والرقيب اليكسندر تورريس . الرائد فالنتين في هذه اللحظة يضع المتفجرات ويعد بعض الالعاب النارية عنـــد باي دي لوندين مع اليكسندر في مكان بين بوان دي جوا وهنا . هل تذكر تروللانجلي.. بلا شك تذكره ، كان يقود القارب الذي اقلنا من الغواصة الى الشاطىء ثم قام بجولة استطلاعية وعاد ثانية الى الغواصة ، وموعدنا معه الليلة ثانية . وسيأتون الينا ـ ليس في غواصة هذه المرة ـ بل في سفينة خاصة .. فليس من السهل ان تدخل البقرة الى قلب الغواصة ..

انتفض ليونيل واقفا والحيرة بادية عليه ثم صرخ يقول :

ـ ماهذا الذي تقولينه ؟ ما صلة الغواصة بالبقرة ؟

ـ لقـد جئنـا لننقل فينوس الى لنـــدن ، فهم لايريدون أن يستولي الالمـان عليها ، والمشكل ـ كما اتضح لنا هذا الصباح ـ هو تعلق كابتن وايز بها حتى انه لا يتركها تغيب عن عينيـــه ولو فها هي ذي في مربضها بجوار القصر .

واشرقت الابتسامة على وجه نيكول قبل أن تقول :

ـ ومن هنا يبدأ دورك ..

ـ ماذا تقصدين ؟

ـ ما قلته تماما .. اننا في حاجة الى معونتك .

ـ لا ادري ماذا تطلبين ، ولكنني أؤكد لك انني لن استخدم العنف مع اي مخلوق .. ولا حتى من اجلك ..

وسرعان ما اختفت الابتسامة من شفتيها قبل أن تقول :

ـ لا نطلب منك ماهو فوق قدرتك .

ثم استدارت واتجهت نحو النافذة وهي تقول :

ـ ص ما نريده منك أن تجعل من بقرة ما سنحضرها اليك صورة مطابقة تماما للبقرة فينوس بكل ما فيها من علامات مميزة وهذا ليس بالصعب عليك ولن تستخدم فيه سوى فرشاتك وأصباغك ..

وفى هذه اللحظات كان هناك من يحدق ـ بدهشة ظاهرة ـ فى قلب الغرفة من وراء أستار النافذة ، وبدا انه لم يصدق عينيه فأتى بحركة لفتت أنظار ليونيل اليه فدعا نيكول الى الانتقال الى المطبخ محذرا اياها من العيون المتطفلة .. وهناك تابعت حديثها تقول :

ـ أرجو ألا تظن اننى فقدت عقلى .. لقد التقيت بالاب راعى الكنيسة ، واتفقنا معا على هذه الخطة فهذه هى الوسيلة الوحيدة لابعاد فينوس ، ووجود البقرة الثانية ـ بمكانها ـ على مدى النظر منه لا يمكنه من كشف الخدعة ـ اليوم على الاقل ـ حتى نتمكن من اخفاء فينوس الحقيقية قرب الشاطىء الى أن يحين موعد الرحيل ..

وفى عطف ومودة تناولت يديه بين يديها وهى تقول :

ـ اذا أردت أن تكون بعيدا عن هذه المغامرة .. فتأكد انى اقدر رغبتك .

وبقيت الأيدى متشابكة ، والعيون متلاقية ، وما فى الفكر متشابه .. كل يريد أن تبقى صورة الآخر عالقة فى ذهنه .. أقوى ماتكون .. والى الأبد فهما يعلمان أن لقاءهما هذا قصير ، وان فراقهما بعد ذلك ، لا يعلم الا الله مداه .

واذ توقف ما كان بينهما من حديث ، بعد أن فقدا موضوعه ، أكان لابد أن يجدا شيئا يصلان به ما انقطع ..

ـ نيكول .. أسعيدة أنت بعودتك ؟

ـ من كل قلبى .. وبرغم كل ما قد يحدث ...

ـ وأنا أيضا ... كم أسعدنى حضورك ..

وانتفض فجـــأة واسرع نحو مرسمه .. ثم عاد وهو يحمل صندوقا صغيرا ووضعه أمامه على المـائدة وافرغ مافيه أمامهـا وهو يقول :

دعينا نلق نظرة على ما لدينـا من الوان .. الابيض الصينى والبنى المجروق .. الاسود والأصفر .. أظنه يكفى ويفيض .. انها ما تبقى لدى بعد طلاء المنزل قبل أن يحل علينا هذا البلاء .

ـ اذن فستعاوننى ياليو .

ـ وهل كنت تتوقعين منى غير هذا .. لنبدأ العمـلَ اذن ؟ اين البقرة الآن .. يحسن أن أعد بعض الكروكيات لفينوس أولا ؟

ـ حسنا . والى أن تعد هذه الـكروكيات سأذهب أنا لأحضر لك البقرة الثانية من حظيرة مسز جويليمز ..

وعلت ضحكتها وهى تقول :

ـ ليو .. الا يبدو هـــذا مثيرا .. تماما كما كنـا نفعلُ فى طفولتنا ..

ـ نعم .. حين كنـــا نلهو ونسعد معا .. نيـكول .. كونى حريصة .. واعتنى بنفسك .

الفصل الخامس عشر

كان جين ـ عضو مجلس البلاط فى جزيرة ارمورال ـ فى حوالى الستين من عمره ، اشتهر بين اهل الجزيرة ـ منذ الصغر بانه اذا ما ذاق قطرة من الخمر ، اندفع فى الشرب حتى يأتى على المخزون كله .. ويبقى مع ذلك شعوره بالظمأ ، ولهذا فقد عرف بين قومه «بالبرميل» .

ولكنه ـ والحقيقة تقال ـ لم يقرب الخمر منذ اقسم بهذا امام مجلس البلاط مساء اليوم الذى وطئت فيه اقدام الالمان ارض جزيرتهم الغالية ، هذا القسم الذى عاهدهم به ألا تمس شفتيه قطرة من الخمر ـ بعد تلك الليلة ـ حتى يعود السوزاربان وشقيقته الى الجزيرة .

وفى سبيل وفائه بهذا القسم ، قاسى جين الكثير وهو يقاوم الشيطان الذى كان يصرخ فى داخله ، والجمرات التى كانت تأكل احشاءه .. كم من مرة تراقصت زجاجة «البراندى» امام عينيه ، وكم من مرة سال لعابه ولعق شفتيه والشيطان يراوده ويغريه ، وكم من مرة انهار وكاد ينزلق .. ولكنه كان فى النهاية دائما يتماسك ويصمد .. ويبقى وفيا ..

وفى صباح هذا اليوم الجميل من سبتمبر ، غادر داره كالمعتاد واتجه الى حيث كان يعمل .. وبينما هو يقطع الطريق بالقرب من «استامنت ديزانج» شاهد جماعة من الجنود الالمان يجلسون حول المائدة التى كانت تتصدر المشرب .

وبرغم ان الوقت كان لايزال مبكرا .. فان زجاجه الخمر كانت

بتوسط مائدتهم ، وحين شاهد أحـــد الجنود جين العجوز يعبر الطريق صاح يدعوه ـ في سـخرية ظاهرة ـ الى مشاركتهم في كأس من هذه الخمرة المعتقة .

وفي هدوء وأدب اعتذر له جين ، وفي سكون تابع سيره ..

ولم يرض الجندى عن هذا الاعتذار ، وانتصب واقفا والغضب يملؤه وصرخ يأمر جين بالعودة :

وفي تثاقل ظاهر .. استدار جين ـ وقد اتجه بقلبه الى الله يسأله العون ـ وتقدم نحو الجندى الذى بادره يقول :

ـ حين دعوتك الى كأس من الشراب أجبتني بلغة الباتوا .. وهذا أمر محرم ، كمـا أنك أيضا رفضت دعوة جندى من جنود الرايخ العظيم .. وهذا أيضا أمر محرم .. وهـانذا الآن أدعوك ـ للمرة الثانية ـ الى كأس ، فاذا رفضتها فسأشعر ان الواجب يحتم على أن أبلغ الرقيب فوجل انك تحتقر الجنود الألمان وتهينهم في حديثك باللغة الأجنبية .

وفي سخرية لاذعة .. انحنى الجندى وهو يطـرق قدميـه بعضهما بعض ويقول :

ـ جين .. هيا ، فانني أدعوك الى كأس .

فرمقه جين بنظرة تكاد تنطق بما يعانيه من حقد وغيظ ، ثم استدار نحو البار وفي أسى بالغ توجه الى صديقه ومواطنه شارلز « عامل البار » يقول :

ـ سأشرب كأسا من الليمونادة مع هذه السيدة الألمانية .. نعم كأسا من الليمونادة .. هل سمعتني عجل بحق السماء .. ـ

ثم رفع جين الكأس الى شفتيه وهو يقول :

ـ اشرب نخبك أيها السادة .

وفي جرعة واحدة أفرغ الـكأس في جوفه ثم أسرع يغادر المكان وهو يستمطر اللعنات على هؤلاء الجنود وعلى اليوم الأسود الذى التقى بهم فيه .. فوق أرض جزيرته الغالية ..

وفي طريقه مر بمنزل مستر ليونيل ، وبلا تفكير أو وعى ، أو دافع ، اتجهت انظاره الى داخل المنزل ، فوقعت عينـــاه عـلى ليونيل وهو واقف خلف النافذة المفتوحة لغرفة الاستقبال يحادث احدى الســيدات ، فتمهل قليــلا يمعن فى النظر .. فكاد قلبه يتوقف وهو يرى من لا يمكن أن يخطئها أبدا .. انها مس نيكول ، شقيقة السوزاريان ، لقد عادت الى موطنها ، الى أهلها وعشيرتها ، وليس لهذا سوى سبب واحد ومعنى واحد ، أن النار قد خمدت والحرب قد انتهت والسلام قد عاد .. وانهم ـ أهل ارمورال ـ قد عادت اليهم حريتهم .. وليس للألمان عليهم بعد اليوم سلطان .

وبلا تفكير استدار جين واندفع يعدو نحو منزله ودفع الباب بقدمه دفعا وهو ينطلق كالقذيفــة نحو الداخــل الى حيث كانت ترقد « زجاجة البراندى » .. واذ كان قد طال انتظــاره لهــذه اللحظة ، وتحمل فى سبيلها ما كان فوق طاقته وقدرته فقد رفع الزجاجة الى شفتيه مباشرة .. فما كانت الكأس لترويه وما كان ليستطيع الانتظار حتى يأتى بها .. ولم تفارق الزجاجة فمه الا بعد أن عصرها عصرا .. وحينئذ .. طوح بها بعيدا ..

***

وقف ليونيل فاليز حيث كانت تربض البقــرة فينوس وشرع يعد «الكروكيات» التى أراد أن يستعين بها فى رسم العلامات المميزة لفينوس على البقرة الأخرى التى ستحضرها له نيكول .

ولم يستطع ليونيل ـ حتى وهو يعد هذه الكروكيات ـ أن يقاوم ما فى نفسه من انطباعات فنية ، فأضاف الى اللوحة الاولى ما كان يظهر خلف البقرة من معالم الطبيعة الجميلة .. وبينما هو يضيف بعض الظلال الى اللوحة فى مرحلة اعدادها الاخيرة ، شاهد الكابتن وايز قادما نحوه .

وفى أدب ظاهر ، بادره الــكابتن وايز بتحية الصباح قبل أن يقول :

ـ أتسمح لى بمشاهدة هذه اللوحة ؟

ـ وما المـانع يا سيدى ؟

ووقف وايز يمعن فى النظر فى اللوحة ويتفحصها من زواياها المختلفة ويقارن ما يراه بالأصل الذى نقل عنه ثم استدار ليونيل يقول :

ـ مستر فاليز .. عمل رائع يستحق التهنئة .

والحقيقة تقال ان اسلوبك قد تغير فى هذه اللوحة كثيراً .. ففيها من الواقعية والتناسق ، والتعبير الصادق ما كنت أفتقده فى لوحاتك التى شاهدتها ..

وفى زهو تابع حديثه يقول :

ـ «وفينوس» فى هذه اللوحة .. بهذا الجمال لا يمكننى أن أخطئها وسط ألف لوحة أخرى ، ولـكن .. لمـاذا رسـمتها من الجانب الأيسر ، ألم يكن من الافضل أن ترسمها من الجانب الأيمن .. هناك تميزها علامة فوق كتفها .. تبدو كالنخلة .. ما كنت لأرسمها الا من الجانب الأيمن .

ثم علت ضحكة وهو يقول :

ـ اليس من الغريب أن ينقد الرجل العسكرى أعمال الفنان ؟

ـ الفنان ياسيدى يتقبل اقتراحات الرجل العسكرى بصدر رحب ..

ـ مستر ليونيل .. اتذكر انك وعدت باهدائى احدى لوحاتك ؟

ـ ومازلت عند وعدى ياسيدى .

ـ اذن فيسعدنى أن تكون هذه اللوحة .. وان كنت افضل أن تكون للجانب الايمن للبقرة ..

وتوقف قليلاً قبل أن يقول :

ـ سأضعها أمامى ، تذكرنى بفينوس وبالفنان الذى رسمها .. انت تعلم طبعـــا ان السلطات فى برلين أمرت بنقل فينوس الى المـانيا ..

ـ ومتى يكون هذا ؟

ـ حين تتوفر وسيلة النقل .

ـ ارجو الا يتم هـذا اليوم ، فالبحر كما نرى غير مستقر ولا يتفق والظروف التى تمر بها «فينوس» الآن .. يحسن الانتظار حتى تضع مولودها .

***

وبلا خوف أو تردد اتجهت نيكول نحو مزرعة مسز جويليمز ، وكان الراعى ينتظرها عند انحناءة الطريق ، وحين التقيا ابتسمت نيكول وهى تقول :

ـ وافق لينول على اعداد ماطلبناه منه ..

ـ لم اشك فى هذا .

وحين وصلا الى المزرعة ، اشـار الراعى الى احدى البقرات وهو يقول :

ـ هذه هى التى قصدتها .. وهى على وشك الوضع ايضا .. لخذيها وسأتولى انا أمر مسز جويليمز .

***

كان جين جالسا فى غرفته فوق المقعـد وقد جحظت عيناه ومال رأسه فوق صدره ، وفى يده اليمنى زجاجة وفى اليسرى كأس كانت كلتاهما ـ منذ لحظات قليلة ـ مملوءتين .. وحين حاول أن ينهض واقفا ليأتى بزجاجة أخرى خانتـه ركبتاه وعجز عن الوقوف فتملكه الغضب والقى بالـكأس بعيدا .. ثم بالزجـاجة وعلى الأرض امتزج زجاجهما المتناثر ، بعـد الحكم الذى وقعه عليهما ، حين تخليا عنه وفرغا من الشراب الذى أراده فيهما .

وبقى فى مكانه لحظات .. حتى تغلبت الرغبـة التى كانت تملأ نفسه ، على الضعف الذى كان قد حل بساقيه فاندفع يترنح ويتمايل .. يستند على هذا الجدار ، ويتعثر فوق الطريق ، وهو يسلك طريقه نحو «دايزنج» .

وحين اندفع نحو «البار» كانت جماعة الجنود قد شرعت في مغادرة المكان ، فاخترق طريقه وسطهم وهو يصرخ ويقول :

ـ ايها السادة .. عودوا الى اماكنكم .. فلى حديث معكم ..

ثم انطلق ـ بلغته الوطنية ـ يوجه اليهم حديثاكان من الواضح انه مملوء بالقذف والسباب ، وفى هدوء نظر اليه احد الرقباء من طرف عينيه وهو يقول :

ـ ايها السكير العجوز .. احذر ما تقول ..

ـ وماذا تملكون وقد انتهت الحرب ؟

ـ أحقيقة انتهت الحرب ايها المخمور ؟

ـ نعم .. وقد جاء دورى الآن لتشربوا معى ..

ثم استدار نحو عامل البار وهو يقول :

ـ شارل .. ست زجاجات من الليمونادة لهؤلاء السادة ..
وساشرب انا .. زجاجة من البراندى . نعم . براندى ياشارل ..
فسنشرب نخب السلام وعودة من نيكول فاليز الى أرمورال ..
لقد عادت ياشارل .. أتسمعنى ، لقد عادت مس نيكول ..

***

حين غادر الكاهن منزل مسز «جويليمز» توقف قليلا ودار بعينيه وسط المزرعة ، وابتسم حين تأكد أن نيكول قد ابتعدت بالبقرة .. وأن مسز جويليمز لم تلحظ شيئا .. فقد كان من أعسر الأمور أن يناقش امرأة مختلة العقل فى أمر يتطلب السرية والكتمان .

وفى الطريق شاهد فرانسوا زوجة شارل عامل البار تسرع نحوه فى فزع ورعب .. وحين التقت به ، صرخت تقول :

ـ أسرع بالله يا أبى .. انه لأمر مفزع .

ـ فرانسوا .. اهدئى .. ماذا حدث ؟

ـ انه جين ياسيدى ، جين البرميل ، انه هناك فى «دايزيخ» وقد فقد رشده تماما .. انه يصرخ ويرقص ويقول ان مس نيكول

قد عادت الى ارمورال .. وان الحرب قد انتهت ، يؤكد يا أبى انه شاهد مس نيكول بنفسه هذا الصباح .

ـ هل هناك من سمعه يقول هذا ؟

ـ نعم يا أبى .. هناك الجنود الالمان .. وجين يصرخ فى وجوههم مدعيا ان الحرب قد انتهت وان شقيقة السوزاريان قد عادت .

كان من يشاهد الراعى فى هذه اللحظات لا يفوته ان يلاحظ ما كان يعانيه من آلام نفسية قاتلة .. تجعله يبدو فى ضعف عمره ومع ذلك فقد أجاب المرأة فى هدوء يقول :

ـ عودى الى «ديزانج» واطلبى من شارل ان ينتظرنى فى الحديقة الخلفية ، مريه أن يضرب بقسوة حين يشاهد جين خارجا معى ، نعم .. يجب أن تكون اللطمة من القوة بحيث تقفل أفم جين تماما .

ـ ولكن يا أبى .. أنت تعرف شارل وتعلم قوته وان ضربته قد تكون قاتلة ..

ـ اذن فستكون هذه هى ارادة الله ، مهماكانت النتيجة فيجب اسكات جين . اذهبى الآن يا بينيتى .

وسار الراعى فى طريقه ـ دون أن يشعر بأى قلق من الخطوة التى اعتزمها ، وهو يقدر أن الواجب هو الذى أملاها ، وان سلامة المجموعة تتطلب التضحية بفرد.. وبقلبه اتجه نحو الخالق يضرع اليه ، ويسأله أن يترفق بجين وأن يخفف من اصابته .

وحين توسط المكان ، كانت فرانسوا تقف خلف البار ، بعد أن خرج شارل من الباب الخلفى ، وكان الجنود قد احاطوا بجين يسخرون منه ، وهو فى وسطهم يملأ المكان صخبا وضجيجا .

واتجه الرجل الى جين وبرفق أمسك بيديه وهو يقول :

ـ جين .. أتعرفنى ! «جاك لوشمينو» !

ـ كلا . لست «جاك لوشمينو» .. انت كاهن ارمورال .. نعم أعرفك تماما فلا تحاول خداعى .

ـ حسنا ياجين ... أنا كاهن ارمورال .. هلا جئت معى ...

قالها وهو يقوده نحو الباب ، سالكا طريقه وسط الجنود ، وحين غادر المكان استدار الى اليمين وتابع طريقه الى حيث كان شارل ينتظر .. وحين هوت الهراوة التى كان يحملها شارل فى يده .. ندت من جين صرخة حادة ، وتهاوى فوق ركبتيه ثم ارتمى على جانبه وقد سكنت حركته .

***

انهمك ليونيل فى عمله ، وهو يراجع ـ بين الحين والآخر ـ انجزه من عمل على اللوحة التى كان قد أعدها .. واخيرا نادى بيكول لتشاهد البقرة وهو يقول :

ـ ما رايك فيها الآن ..؟

ـ رائع .. ما كان بيكاسو ليحقق مثل هذه النتائج .

ـ انه يوم مشحون بالاثارة . انت هنا الى جوارى ، وانا اعمل بفرشاتى على جلد بقرة .. والقبطان يريد منى هذه اللوحة .

ثم توقف قليلا قبل ان يقول :

ـ متى يتم استبدال البقرتين ؟ وأين ستخفين فينوس ؟

ـ لم أستقر بعد على مكان معين ، وقد اقترح الأب أكثر من مكان ولكننى افضلِ التروى قليلا فى الاختيار .

ـ مارايك لو احضرناها الى منزلى . انه المكان الذى لايخطر على بال مخلوق أن يبحث فيه ، ولو حدث .. فمن الخير أن يجدوها هنا ، لا أن يجدوها فى أى مكان آخر .

ـ لا اريد أن يتحمل أى فرد من أهل الجزيرة تبعة العمل الذى سنقدم عليه ، لذا فانني أقبل اقتراحك وسأنقلها الى هنا ، اذا وعدت أن ترافقنا فى رحلة العودة الى لندن هذا المساء .

ـ نيكول .. يصعب على أن اجيبك فى الحال .. امهلينى بعض الوقت ، ولا تخشى شيئا .

الفصل السادس عشر

جلس عامل اللاسلكى ـ فى القسم المخصص لمكتب الاشارة بالطابق السفلى من مبنى وزارة الحرب ـ الى جهازه قبل الموعد المحدود للاتصال بجزيرة أرمورال بدقائق . وبدأ الاتصال بينهما بالعبارات التقليدية الخاصة بضبط المحطات والتأكد من تمام الاتصال ثم شرع الرقيب فوريس يملى رسالته :

وقبل أن تمضى دقائق معدودات كان هناك من يطرق باب الحجرة رقم ٥٧ ، وحين سمح له بالدخول أدى التحية وسلم العم جورج رسالة كان يحملها من مكتب الاشارة ثم انصرف عائدا .

وفتح العم جورج الرسالة اللاسلكية وقرأ فيها مايلى :

« الى العم جورج ..

من فالنتين ..

جميعنا ـ الاربعة ـ بخير . أكرر «الأربعة» أرى لزاما على أن أبلغ عن وجود مدمرة الجيب «لوبوك» فى الميناء . تقلقنى حالة البريمادونه . اذا أردتم أن نتابع العملية اقترح ترتيبات طيبة خاصة لها . سنعاود الاتصال فى تمام الثالثة ولن يقلقنا ما قد ترون اتخاذه من اجراءات أمن » .

وفى هدوء أعاد العم جورج الرسالة الى المظروف وابتسم ابتسامة الرضا والاطمئنان وهو يرى خطته تسير كما قدر لها تماما ..

واذ رأى نظرة الدهشة التى ارتسمت على وجه سكرتيرته ناولها الرسالة وهو يقول :

ـ انها من فالنتين . أترغبين فى الاطلاع عليها ؟

ـ نعم .. اذا سمحت .

كانت تعمل فى خدمة العم جورج منذ سنوات طويلة ، وكانت تعرف طباعه وعاداته . وفى أيام السلم وفى وقت الحرب ، لم تعرف فيه سوى الرجل الصلب الذى لايستكين ولا ينحرف عن

الأهداف التى يرسمها لنفسه . وكان كلّ من يعملَ معه من الرجال أو السيدات يعرف هذا عنه تمام المعرفة . كانوا يذهبون ـ فرادى أو فى جماعات صغيرة ـ لقضاء المهام التى يكلفهم اياها ـ بلا تردد أو مناقشة ـ وكلهم على ثقة من أنهم يؤدون واجبا تتطلب المصلحة العليا أداءه ، وان كان الموت يتربص بهم فى كل خطوة يخطونها ..

وما أن أتمت مس براون قراءة البرقية حتى بادرت العم جورج قائلة :

ـ انه لمن سوء الطالع أن توجد هذه المدمرة في مياه الجزيرة اليوم ..

ثم توقفت قليلا قبل أن تقول :

ـ هل تريد الاتصال ببورتسموث الآن ؟

ـ ولـماذا .. ؟

ونظرت اليه فى دهشة بالغة ـ كما لو أنها فوجئت بهذا الرد ..

ثم قالت :

ـ لاشك أنك تريد الغاء قيام الباخرة التى ستلتقطهم الليلة .

ـ لا . لا أريد هذا .

واستغرق فى التفكير قليلا قبل أن يتابع حديثه قائلا :

ـ منذ متى وأنت تعملين معى ؟

ـ منذ سنوات طويلة .. تكفى أن تجعلنى أحكم بأنك لن تضحى بأحدى السفن ومن فيها من رجال لانقاذ حياة رجلين وامرأة .. وبقرة ..

وارتسمت الابتسامة على وجه العم جورج قبل أن يقول :

ـ هذا صحيح .. هل قرأت ماقاله كبلنج «بكاء الطفل يثير شهية النمر» .

ـ نعم .. ولـكن ما علاقة هذا بموضوعنا ؟

ـ الا تحملك هذه العبارة على التفكير قليلا فى معناها ؟

ـ مازلت لا افهم شيئا .

ـ سأزيد الأمر وضوحا .. «اختطاف البقرة يثير شهيـة المدمـ ة» .. هلَ فهمت الآن ؟

وحين تبينت مس براون ما يعنيه العم جورج تماما ، أصابتها

الدهشة وشعرت أنها مازالت أعجز من أن تفهم هذا الرجل ـ برغم علاقتها الطويلة به .

وفى صوت الشاعر بذنبه ، المعترف بعجزه .. سألته :

ـ نعم . انها أحدث القطع البحرية الألمانية ، فائقة السرعة قوية التسليح وهى الآن فى ارمورال فى مهمة سرية .

وتوقف قليلا .. واستغرق فى تفكير عميق قبل ان يقول :

ـ انها ترسو فى خليج « هافردى مويت » وهو خليج مغلق يوفر الأمن والسلامة لها ، وستبقى كذلك ما لم تخرج الى عرض البحر .. وحينئذ ستكون لقمة سائغة لطائراتنا التى تترقبها وتتربص بها .. بعيدا عن الجزيرة وسكانها .

ـ وكيف وصل الى علمك نبأ وجودها هناك ؟ .

ـ اننى أتتبع أنباءها منذ غادرت ميناء كييل فى الأسبوع الماضى .

ـ ولماذا اذن لم تخبر الرائد فالنتين بأمر هذه المدمرة .. اكان الوضع يختلف ـ لو انه عرف حقيقة الموقف .

ـ نعم .. كان سيختلف كثيرا ، تعلمين انه كان راغبا عن سفر فاليز معه ، وهو رجل رقيق الاحساس .. وخاصة مع النساء ، ولا يميل الى تعريضهن للأخطار ، ولما كانت مس فاليز من العوامل الرئيسية لنجاحه فى مهنته كان لابد أن أخفى عنه ما قد يزيده اصرارا على رفض صحبتها له .

ـ اذن فقد جعلته يعتقد أن مهمته هى نقل البقرة فينوس الى لندن .. بينما تدبر انت هنا أمر اغراق المدمرة اوبوك ..

ـ الى حد ما .. فاننا نريد البقرة ايضا .

ـ هل اكتب الرد على رسالة الرائد فالنتين ! ..

ـ نعم .. وعجلى بها ..

وفى الموعد المحدود .. كان فالنتين يتلقى رسالة العم جورج التى قال فيها :

« سيتم الأمر كما خطط له .. بلا تغيير » .

وفى نفس الوقت الذى تلقى فيه فالنتين هذه الرسالة كان العم جورج يجرى الاتصال بفرع المخابرات بقيادة السلاح الجوى لتأكيد موعد مهمة كان قد سبق الاتفاق على تفاصيلها ..

الفصل السابع عشر

كانت الامنية التى تمناها كل من فالنتين ونيكول حين شاهدا النجم يسقط محترقا فى كبد السماء ـ مانزال تؤتى ثمارها ؟ وكان الحظ ماانفك يعمل فى جانب المجموعة .

ففى هذا اليوم ـ بالذات ـ تكدست الأوراق على مكتب الكابتن وايز ، وكثر رنين جرس التليفون يدعوه لاتصالات لاسلكية عاجلة مع قيادته فى نيوجرسى .. وبذا تأخر فى مكتبه عن الموعد الذى اعتاد ان يتناول فيه طعام الغداء مع ضباطه ، وبهذا التأخير ، فاته ان يستمع الى حديث كان يدور بين بعض رجاله ، لو أنه استمع اليه لأمر فى الحال باجراء تحقيق دقيق .

كان أحد الضباط ـ من الذين وفدوا أخيرا على الجزيرة للخدمة بها ـ يحادث زميلا له عن فتاة جميلة قيل أنها ظهرت فى الجزيرة هذا الصباح ـ وأشيع أنها كانت تلوح بيدها للجنود مرحبة مهللة ، فاجابه زميله الذى كان يعرف الجزيرة وأهلها ـ بأن الجنود ـ تحت حكم الظروف التى يعيشونها والحرمان الذى يقاسونه يجسدون مثل هذه الأمور ويبالغون فى تصويرها .. وأن الجزيرة كما يعلم لاتوجد فيها مثل هذه الفتاة .

وحين وصل الكابتن وايز الى « الميس » ـ كان الضباط قد غادروه كل الى سبيله .. وعلى ذلك فقد فاته هذا الحديث . وحين عاد الى مكتبه تلقى رسالة برقية تفيد بأن باخرة نقل خاصة ستغادر جيرونس اليوم وتصل الى الجزيرة فى تمام السادسة من هذا المساء لتنقل البقرة فينوس الى ميناء سان بيتر .. وكان فى وصول هذه البرقية ما أثار ضيق وايز وقلقه فهو يعلم أن

البقرة قد تضع مولودها بين لحظة وأخرى ، وأن نقلها بحرا فى مثل هذه الظروف قد يصيبها بضرر •

وسرعان ما اتصل بقيادته لاسلكيا ، يحاول أن يوضح الموقف وأن يؤجل الموعد ولكن السلطات كانت قد قررت أن تتخذ من هذه البقرة موضوعا للدعاية واتخذت لهذا الغرض الترتيبات التى تبرز وصولها الى ألمانيا وتبين الاستقبال الحافل الذى يعد لها •• وقد تكاتفت فى هذا السبيل جميع وسائل الدعاية والأعلام • ولم يستطع وايز الا أن يمتثل للامر وان يستعد لتنفيذه ، فأرسل يدعو « الاركان حرب » لتلقى تعليماته الأخيرة فى هذا الشأن ••

ـ لقد تلقيت تعليمات القيادة فى نيوجرسى لنقل البقرة فينوس الى ألمانيا • وقد تقرر أن يتم هذا الليلة وستصل الباخرة فى المساء ، وبلغ تعليماتك الى بابتست الذى يتولى رعايتها ليصحبها الى الميناء لتكون هناك قبل الساعة السادسة •

ثم توقف قليلا قبل أن يقول :

ـ حاولت أن أمنع سفرها بالذات ، ولكنهم هناك أرادوا أن يجعلوا من وصولها الى ألمانيا موضوعا للدعاية •• ويبدو أنهم قد استعدوا لهذا الغرض استعدادا كبيرا ••

ـ أرجو ألا تفتقدها كثيرا يا سيدى ••

ثم ابتسم ابتسامة ذات معنى قبل أن يقول :

ـ وعلى كل ففى الجزيرة الآن فينوس أخرى تستحق أن تنال منكم بعض هذه الرعاية •

ـ فينوس أخرى ••! ماذا تعنى ••؟

ـ انها ليست بقرة •• بل فتاة بارعة الجمال يا سيدى •

ـ فتاة بارعة الجمال ••! من تكون ؟

ـ هذا ما حاولت أن أعرفه •• ولكن لا أحد هنا يدرى ، لقد رآها كل رجل فى فصيلة همفر وهم فى طريقهم الى منطقة العمل هذا الصباح •• ولكنهم جميعا لا يعلمون عنها شيئا •

فانفجر الكابتن وايز يصرخ فى وجه الضابط ويقول:

ـ لماذا لم أبلغ هذا قبل الآن ؟

ـ لم أجد فى هذا الأمر ما يستحق التبليغ .. ولكن الجديد هو ما جئت الآن أبلغ عنه ..

ـ وما هو ؟ .

ـ قبيل الظهر بقليل كان بعض الجنود يتناولون القهوة فى « ديزانج » حين دخل جين ـ هذا الرجل المسن عضو مجلس البلاط ـ وكان فى حالة سكر بين .. واخذ يصرخ ويرقص ويغنى ويتفوه بعبارات غريبة منها قوله انه رأى مس نيكول شقيقة السوزاريان ..

ثم توقف الضابط قليلا وقد تنبه فجأة الى أمر كان قد فاته حتى هذه اللحظة وقال :

ـ ايمكن أن يكون ؟ .

ـ اخيرا بدأت تفهم أيها الغبى ..

ـ قلما يهتم الجنود يا سيدى بما يسمعون .. كما أن الرجل كان مخمورا وبدا كما لو أنه كان يهذى ..

ـ واين جين هذا الآن ؟ .

ـ لقد جاء راعى الكنيسة ليصحبه وخرجا معا ..

ـ ابحث عنه وآت به الى هنا فى الحال .. مهما كانت حالته » أرسل الرقيب فوجل الى «ديزانج» ليبحث عن ضباط الصف والجنود الذين كانوا هناك وسمعوا ما قاله جين ، وسأتولى بنفسى امر استجوابهم .. كل على حدة .. واخيرا أريد استدعاء الكاهن ايضا .. فسيكون لى حديث معه بعد استجواب الجنود ..

واسرع الكابتن وايز بعد ذلك يغادر مكتبه واندفع نحو سلم القصر وشرع يتخطى درجاته قفزا وتوقف لحظات قصيرة أمام احدى الحجرات ، ثم دفع الباب بقدمه دفعا ، واخذ يقلب ما فيها راسا على عقب بحثا عن شىء معين رأى أنه سيكون سبيله لاستجلاء

الحقيقة .. وحين عثر على ضالته المنشودة ـ وكان صورة لفتاة جميلة فى ريعان الشباب . وعليها اهداء كتب بخط رقيق جميل يقول : « من نيكول الى لوك .. يونية ١٩٣٩ » ـ غادر الحجرة فى هدوء عائدا الى مكتبه .

وبدا الكابتن وايز استجوابه للجنود بسؤال ضابط الصف :

ـ فى اثناء عودة رتل الجنود الى المعسكر هذا الصباح .. هل حدث انكم شاهدتم سيدة فى مقتبل العمر تعبر الطريق ؟ .

ـ نعم يا سيدى ..

ـ هل هذه الشابة معروفة لك ؟

ـ لا ياسيدى .

ـ ألم ترها من قبل ؟

ـ نعم ياسيدى . لم يسبق أن وقعت عليها عيناى .

ـ هل فى مقدورك أن تتعرف عليها اذا شاهدتها ثانية ؟ .

ـ بكل تأكيد يا سيدى ..

فعرض الكابتن وايز الصورة الفوتوغرافية على الرقيب شنايدر وهو يقول :

ـ هل شاهدت هذه السيدة من قبل ؟

فامعن الجندى فى النظر فى الصورة قليلا ثم صاح يقول :

ـ انها من شاهدناها هذا الصباح يا سيدى .

ـ أواثق أنت مما تقول ؟

ـ كل الثقة يا سيدى .. صحيح انها لم تكن ترتدى مثلَ هذا الثوب .. ولكنها صورتها بلا شك ..

ـ ايها الغبى .. أكنت تنتظر منها ان ترتدى هذا الثوب اليوم ايضا ، اغرب عن وجهى وانتظر فى الخارج .

وجاء بعد الرقيب شنايدر جنديان أكدا نفس ما قاله وتعرفا فى الحال على نفس الصورة . وجاء ثالث راوده الشك قليلا ثم عاد

وأكد انها نفس السيدة وان كانت لا تضع هذه الوردة فى شعرها .
وهكذا باقى الجنود .

وقبل ان ينتهى الاستجواب تقدم الرقيب فوجل يقول :

ـ لقد وجدت الرجل يا سيدى ..

ـ واين هو .. لماذا لم تحضره الى هنا كما امرتك ؟

ـ يتعذر هذا يا سيدى ، فهو يرقد الآن فاقد الوعى تماما فى احدى الغرف الخارجية لمبنى « ديزانج » .

ـ امخمور هو الى هذا الحد ؟ .

ـ لا ياسيدى .. انه مصـــاب بجرح غائر فى مؤخرة الراس .

ولم يتمالك الكابتن وايز نفسه ، ولم يستطع ان يسمع اكثر مما سمع .. وبما بدا من حركات يديه ، وتقلصات وجهه وصوته المرتجف كان واضحا انه ـ فى هذه اللحظة وعند هذا الحد ـ قد فقد سيطرته على نفسه تماما .

وتوالت تعليماته الى أركان حربه بمضاعفة عدد الحراس والامر باحتلالهم مراكزهم فى الحال ـ واعلان الطوارىء بين القوات ـ واستعدادها بالنيران لمواجهة اى موقف يطرا ، وتفتيش كل منزل فى الجزيرة ، واعتقال الراعى واعضاء مجلس البلاط وحظر التجوال فى انحاء الجزيرة و ... و ... و ...

واخيرا سقط على مقعده وهو يقول :

ـ والآن .. جاء دور هذا الكاهن ..

***

كانت الشمس قد توسطت كبد السماء ، حين القت نبكول نظرة على ساعتها ـ قد تكون للمرة المائة خلال فترة وجيزة ـ وبصوت مرتجف قالت :

ـ اظن انه من الافضل ان اذهب الآن ..

فاجابها ليونيل فاليز بصوت اشد رجفة :

ـ أكره أن تفعلى أنت هذا ..
ـ أنا أيضا أكره هذا العمل .. ولكن يتحتم أن اقوم به ..
ـ أليس من الأفضل أن أذهب بها أنا بدلا منك ؟ .
ـ ذهابى أنا لن يلفت الأنظار ، امرأة تقود بقرة .. أمر معتاد .. أما أن يقودها ليونيل فاليز .. فأمر غير مألوف ولا شك أنه سيثير الشبهات ..

وهكذا خرجت نيكول وهى تقود البقرة ـ بديلة فينوس ـ بعد أن أتم ليونيل عمله ـ وجعلها صورة مطابقة لها تماما ـ وفى ظلال شجرة وارفة كانت لا تبعد كثيرا عن المكان الذى كانت « فينوس » ترعى فيه ـ تركت نيكول البقرة البديلة وفى سكون اتجهت نحو « فينوس » وهى ترقب القصر ونوافذه بحذر وعناية .

وكما أوضحنا كان الكابتن وايز فى شغل شاغل هذا اليوم الهاه عن متابعة فينوس بنظراته بين الحين والآخر كما كان يفعل عادة .. اما عن الحراس فما كان ليعنيهم كثيرا أمر بقرة تذهب وأخرى تأتى .. ولهذا فقد أتمت نيكول استبدال البقرتين فى سلام ، ووصلت فينوس الى منزل نيكول بلا متاعب .

***

كان الكابتن وايز يجلس الى مكتبه موليا ظهره نحو النافذة ، وأمامه كان كاهن ارموزال يقف منتصب القامة رافع الرأس .. ويقول :

ـ هل أرسلت فى طلبى يا سيدى القومندان ؟ .
ـ نعم ..

ورمقه وايز بنظرة فاحصة مملوءة بالحقد والكراهية وهو يقول :

ـ أريد منك ايضاحا عاجلا لأمرين أثارا شكوكى اليوم .. الأول وجود سيدة شابة شوهدت صباح اليوم فى الطريق وهى تلوح بيدها للجنود .. من تكون هذه السيدة ؟ . وأين هى الآن ؟ .

لم يبد على وجه الراعى ما يكشف علمه بأمر هذه السيدة وبقى صامدا لا يهتز .. وفى هدوء أجاب يقول :

ـ لابد ان هناك خطأ ما .. فنساء الجزيرة يتنقلن فيها طول اليوم .

ـ أهذا كل ما لديك لتقوله ؟ .

ـ نعم يا سيدى .. فليس لدى ما يستحق القول ..

ـ فليكن ما تقول ، سأنتقل اذن الى الأمر الثانى ..

ـ بلا شك تعرف جين عضو مجلس البلاط .. لقد كنت آخر من شوهد معه وهو يغادر « ديزانج » منذ ساعات ، وقد وجدناه منذ ساعة يرقد فى حجرة من حجرات المطعم الخارجية مصابا فى اسفل رأسه بجرح غائر ، وهو فاقد الوعى تماما ..

وتوقف وهو يرمق الراعى بنفس نظراته النارية قبل أن يقول :

ـ لماذا ياسيدى الأب .. راعى ارمورال ، تطلب الأمر اسكاته الى هذا الحد ؟ .

ـ لا أدرى يا سيدى شيئا عن هذا الأمر وبالتالى فلا ايضاح لدى أقدمه ..

ـ أليس هناك ما يربط بين هذه السيدة التى شوهدت صباح اليوم والاعتداء الذى وقع على جين ؟ .

ـ لا أظن ذلك ..

ـ أهذا كل ما لديك ؟ .

ـ نعم ..

ـ هل أوضح لك أنا الامر ؟

ـ تفضل يا سيدى ..

وتمهل وايز قليلا قبل أن يقول فى تشف ظاهر :

ـ السيدة الغريبة هى مس نيكول فاليز شقيقة السوزاريان الغائب .

وتوقف القومندان يتفحص آثار هذا التصريح على وجه الراعى الجامد الذى لا يختلج .. قبل أن يتابع حديثه قائلا :

ـ لقد جاءت الى الجزيرة سرا ، ومن المحتمل ـ بل الاكثر الى الصواب ـ انها لم تأت وحدها .

والتقط وايز الصورة الفوتوغرافية ورقمها الى عينى الكاهن وهو يقول :

ـ أليست هذه صورة مس فاليز ؟ .

فأنعم الراعى النظر فى الصورة قليلا ثم قال :

ـ انها صورة مس نيكول يا سيدى .

ـ أنها ايضا السيدة التى أتحدث عنها والتى شـوهدت فى الجزيرة صبـاح اليـوم .. وقد تعرف الجنـود الذين رأوها فى الصباح على صـورتها حين عرضت عليهم .. اتريد برهانا آخر يا سيدى الراعى .

ـ ... ...

ـ لقد شاهدها ايضا جين العجوز المسكين .. واذ كان مخمورا فى « ديزانج » هذا الصباح ، لم يستطع السيطرة على نفسه ولا التحكم فى لسانه .. ولهذا تحتم اسكاته ولو الى الابد ..

ونهض القومندان واقترب من الراعى وفى صوت حاد ثائر صاح مهددا الكاهن :

ـ اذا مات جين .. فستلقى نفس المصير انت ومن اشترك معك ، فالجزاء من جنس العمل ..

وفى هذه اللحظة علا رنين جرس التليفون فالتقط القومندان السماعة ولم تمض لحظات حتى صاح يقول :

ـ ماذا تقول .. مسز جويليمز تبلغ عن ماذا ؟ . سرقة احدى بقراتها .. تريد ماذا .. أن أقوم انا الكابتن وايز حاكم الجزيرة .. بالبحث عن البقرة المفقودة .. هذا جميل .. الا ترى ان اخلى جنود الحامية من واجباتهم واطلقهم وراء هذه البقرة ؟ .

وفى غضب ظاهر ألقى القومندان بالسماعة واستدار نحو الراعى ، وفى حركة تمثيلية مفتعلة ، وفى سخرية ظاهرة وتشف بالغ بادره يقول :

ـ والآن يا سيدى الراعى المبجل .. أين مس فاليز ؟ . لماذا وجودها فى الجزيرة الآن .. ما هى أهدافها ؟ .. ومن جاء معها ؟ ..

وقى وقفته مواجها النافذة ، ومن خلف ظهر الكاهن .. شاهد الراعى ـ فى هذه اللحظة ـ نيكول تسير فوق العشب عارية القدمين وهى تقود البقرة فينوس خلفها .. متجهة بهـا نحو منزل ليونيل .. وبقى الكاهن صامتا لا تكشف خلجات وجهه عما يراه أمامه ، وحين ابتعدت نيكول تماما اجاب القومندان بقوله :

ـ لا أملك الاجابة عن سؤالك يا سيدى ..

ـ استمع الى .. الجزيرة محاطة بالحراس .. وما من سبيل أمام مس فالنز للهـرب ، ألا ترى انه من الأفضـــل أن تفضى الىء بالحقيقة ..

وبقى الكاهن على صمته ، وقد استغرق فى تفكير عميق .. دوامة طاحنة كادت تعصر ذهنه وتكتم أنفاسه .. فكر فى كل شىء ، فكر فى شعب الجزيرة الذى أسلم له قياده .. وفى السوزاريان الذى وكل اليه أمور هذا الشعب ، وفى زوجتـــه وفى نفسه .. ولـكنه لم يفكر أبدا فى أن يخون الأمانة أو أن يشى بمن وثقوا به ..

وفى هدوء اجاب القومندان يقول :

ـ ليس لدى ما أقوله يا سيدى ..

ـ حسنا ، مادامت هذه رغبتك ..

وتوقف قليلا قبل أن يقول :

ـ سآمر بالقبض عليك .. ولن تغادر هذا القصر ..

ـ الأمر ما تراه يا سيدى .

***

خيل الى نيكول ـ حين وصلت الى الباب الخلفى لمنزل ليونيل ـ انها قطعت هذه المسافة فى ساعات لا فى دقائق .

وحين اغلق ليونيل الباب خلف البقرة ، ارتمت نيكول على الارض وهى تقول فى صوت واهن :

ـ لم أتصور أبدا أننى على هذا القدر من الجبن والخوف ..

ثم تمالكت انفاسها قليلا وهى تقول :

ـ لا أظن أن فينوس فى حالة طيبة .. أخشى أن الأمر لن يزيد على ساعات ..

الفصل الثامن عشر

فى تمام الساعة الخامسة ، غادر بابتست كوخه .. كان الراعى قد لقنه ما سيفعله وكان هو قد اعتاد ان ينفذ ما يوكله اليه الراعى بلا مناقشة .

ووصل الى المرعى خلف قصر الحاكم ، حيث كان قد ترك البقرة فى الصباح .. وحين وقف الى جوارها اخذ يتفحصها بعينيه المدققتين .. ثم انفجر ضاحكا من كل قلبه .. فللمرة الأولى ـ منذ وقع نظره على القومندان وهو يداعب فينوس ـ يشعر بالاطمئنان على بقرته الغالية ، وبالسعادة للنتيجة التى حققها ليونيل .. سيقود هذه البقرة الى الميناء ، وسينقلونها الى المانيا وسيقعون فى الشرك الذى نصب لهم بعناية .. فهذه هى ارادة الله .. وعلى الباغى تدور الدوائر .

والتقط بابتست الحبل وتقدم يسلك طريقه ، والبقرة تسير خلفه فى استسلام بالغ الحد .. وبرغم انه احس أن أمورا غير معتادة تحدث فى الجزيرة ، ولاحظ ان الجنود ينتشرون فى كل مكان .. فقد تقدم وهو لا يخشى شيئا .

وعند مقر القيادة اعترضه حارس فى غلظة وخشونة وهو يقول :

ـ الى أين انت ذاهب ؟

ـ تلقيت التعليمات بنقل هذه البقرة الى الميناء .

ـ من امرك بهذا ؟

ـ انها تعليمات القومندان .. بلغ راعى الكنيسة اياها .

ـ هكذا .. ولماذا ذهاب البقرة الى الميناء ؟

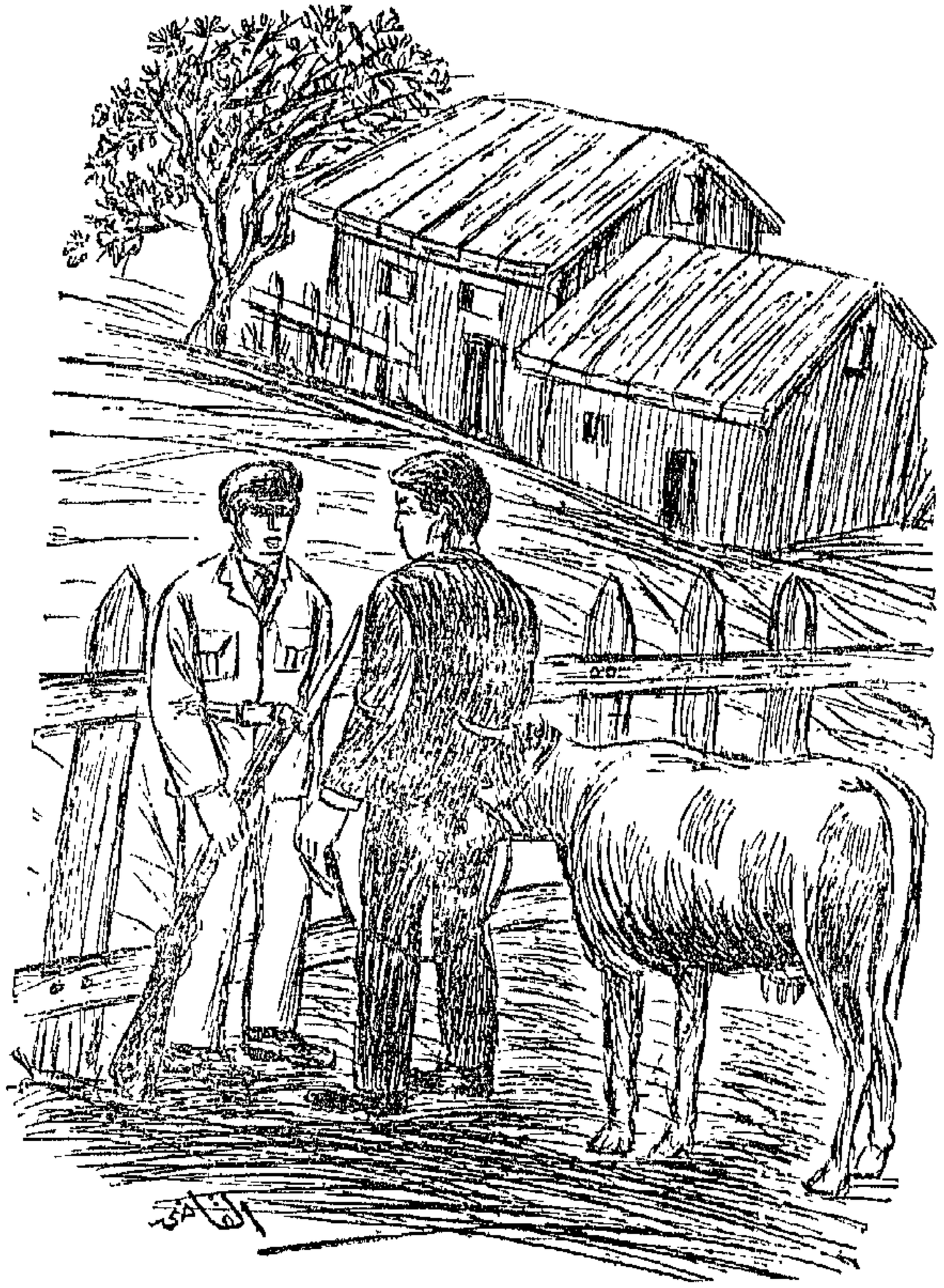

وفى دهشة نظر بابتست الى الحارس قبل أن يقول :

ـ أنا مثلك ياولدى .. لا أناقش ما يصدر الى من تعليمات .

ومال بابتست على أذن الحارس كمن يسر له ما خاله أمرا خطيرا وقال :

ـ هذه هى البقرة فينوس .. انها فى طريقها الى المانيا ، الا تعلم هذا ؟ .

فابتسم الحارس للمرة الاولى وهو يربت على ظهر بابتست ويقول :

ـ بلى .. اذكر شـــيئا كهذا .. هيـا تقدم .. اسرع حتى لا تتاخر عن موعدك ..

ـ شكرا يا ولدى .. شكرا ..

وتابع بابتست تقدمه .. وفى قرارة نفسه كان يقول :

« لقد كذبت على هذا الحارس .. ولا شك سـألقى جزائى ، ولكن ، هل يحاسبنى الله على كذبة بيضاء .. اذا أراد الله أن نالنى جزاء فلتكن مشيئته اذن » .

نظر الكابتن وايز الى ساعته ونهض واقفا وهو يقول للملازم مولر :

ـ سأذهب الآن الى الميناء فقد حان موعد شحن البقرة ..

وفى الطريق التقى بالحارس فاخبره بأمر البقـرة فينوس وكلافها بابتست ، فأكد له وايز أن الأمر تم بنـاء على تعليمـاته الشخصية ..

وحين وصل وايز الى الربوة العالية التى تشرف على الميناء شاهد سفينة الشحن الالمانية واقفة فى الانتظار على يمين المدمرة لوبوك .. وعلى الرصيف شاهد البقرة وكلافها وسط جمع من بحارة السفينة : يحاولون دفعها الى قلب الصندوق الذى سينقلها الى ظهر السفينة .. فأسرع يعدو عدوا نحوهم وهو يصيح يحذرهم ويأمرهم بالانتظار .

وحين راى بابتست القومندان ... استشعر الخطر القادم وحاول أن يثني عامل الرافعة عن التوقف وصاح يقول للقومندان :

ـ ارجوك يا سيدى لا تحاول الاقتراب ... سيتم كل شيء على احسن حال ... اصوات الرافعة تثير البقرة واخشى ان يصيبك بمكروه ...

وارتفعت الرافعة تحمل البقرة وبابتست الى جوارها في الصندوق .. ووصل القومندان الى رصيف الشحن .. واذ لم يستطع الانتظار اسرع يتخطى درجات سلم الباخرة قفزا ، وفى اللحظة التى وطئت أقدام البقرة سطح السفينة كان وايز يقف الى جوارها يربت عليها ويتأكد من سلامتها .

ولدهشته ـ لاحظ أصباغا تلطخ يديه ـ ومن نظرة سريعة لخاطفة ألقاها على البقرة اكتشف الخدعة تماما .

ولم يتردد وايز لحظة واحدة .. وسرعان ما أمر باعادة البقرة الى الشاطىء من جديد واتجه الى بابتست ولطمه على وجهه في غيظ وحقد وهو يقول :

ـ اذن فانت تحاول أن تجعل منى اضحوكة يتندرون بها في المانيا ..

ـ ... ...

ـ احداث غريبة تجرى اليوم فى الجزيرة .. ولكن العبرة بمن يضحك اخيرا ..

وانفجر فجاة يصرخ ويقول :

ـ هذه المخلوقة المصبوغة .. ليست فينوس .. انها ليست فينوس .. ليست فينوس ..

***

واخيرا بدات خيوط الغسق تنشر ظلالها فوق الجزيرة ، وبدات الطيور تؤوب الى اوكارها .. وانتشرت غلالات الدخان فوق الدور صاعدة من مداخنها ممزوجة برائحة الخشب الذى كان يحترق في مواقد الطعام .

وفى هذه اللحظات .. كان فالنتين مورلاند يرقد فى اقلب دغل الثيف ، قريب من الطريق المؤدى الى « بوان دى جوا » .. وهو ينعم النظر فيما حوله بقلق ظاهر .

وفى رشاقة الهندى الأحمر تحسس الكسندر فوريس طريقه الى داخل الدغل ، وفى هدوء رقد الى جوار فالنتين ...

ـ اليكس .. مرحبا بك ..

ـ مرحبا بك يا سيدى ..

ـ تجرى فى الجزيرة الآن امور تثير الشك .

ـ ماذا حدث ؟ .

ـ لا أعرف تماما .. ولكنهم يطوقون الجزيرة بالحراس ويسدون كل المسالك .. لقد ذهب راعى الكنيسة الى قصر الحاكم منذ ساعات ولم يعد الى داره حتى الآن .. وبالمناسبة لقد قمت بقطع الخط التليفونى الممتد الى « بوان دى جوا » .

ثم توقف قليلا واستدرك كمن فاته أمر مهم .. وهو يقول :

ـ ولكن .. اين مس فاليز ؟ .

ـ لم تأت بعد .. كم أشعر بالقلق عليها ...

ـ أقدر شعورك هذا يا سيدى ..

ـ لقد حملتها ما ينوء به كاهل الرجال ...

ـ ما كان فى مقدورك غير هذا .. وبدونها ما كنا لنستطيع شيئا ...

ـ اذا أصابها مكروه .. فلا أدرى ماذا أفعل ...

ـ لماذا تفكيرك هذا ، لماذا تتوقع الشر قبل وقوعه ؟ .

وكما لو انه أراد أن يغير موضوع الحديث قال :

ـ الريح تهب من الجنوب الغربى .. وسيكون المد مناسبا لعودتنا الليلة .

واذ لم يتلق اجابة من فالنتين ، بادره بقول :

ـ قلت ان المد سيكون مناسبا لرحلة العودة ...

ـ سمعت ما قلت يا اليكس .. وددت فقط لو انها عادت قصرعة ..

ـ وماذا لو انها لم تعد ؟

ـ لن أغادر الجزيرة بدونها ..

ـ ومن قال اننا سنفعل هذا ؟ .

ـ أعنيت حقا ماقلته يا الـكس ؟

ـ او كنت تتوقع منى غير هذا ؟ .

وسادهما الصمت من جديد ، وبدأت خيوط الظـلام تزداد كثافة .. واخذت اصوات الطيور تخفت وتتلاشى .

***

وعاد الكابتن وايز الى مكتبه .. وتوالت تعليماته واوامره .. « بعتقل بابتست ويوضع فى زنزانة خاصة .. تشدد الحراسة وتمنع بالقوة تنقلات أهل الجزيرة بمفردهم أو مع دوابهم ، تعين قوة خاصة برياسة الرقيب فوجل للبحث عن البقرة فينوس ولو أدى الأمر الى تفتيش كل منزل وكوخ ، يستعجل تقرير الطبيب عن حالة المصاب بيجين ، ينذر قائد المدمرة « لوبوك » للاستعداد لاى طارىء ، وسأتولى الأمر بنفسى ولا اريد ان تصـل الى جيرونس اية معلومات عن هذا الذى حدث اليوم ، حتى أعد التقرير الشامل عن الحـادث ونتائجه بنفسى ، وسـتكون قراءته هناك مشوقة - والآن .. الى بالكاهن ..

وفى خطوات ثابتة قوية ... دخل الكاهن ـ وبلا مقدمات ـ بادره الكابتن وايز يقول :

ـ منذ اقل من ساعة سألتك عن معلوماتك عن مس فاليز فامتنعت عن الاجابة .. والآن .. هل تعرف شيئا عن مكان البقرة فينوس ؟ .

وحين تبين الكاهن أن هذا الأمر قد انكشف ايضا سقط قلبه وكاد ينهار . ولـكنه تمالك نفسه وهو يرى الظلام قد اسـدل

صغره ؟ والوقت والظلام ـ في مثل هذه المواقف ـ عادة ما يكونان أكثر من صديق ، والعمل على كسب الوقت بالتمادى في التضليل لا شك سيعاون مس نيكول ورفاقها .

وفي هدوء رفع الكاهن رأسه وهو يقول :

ـ من أين لى أن أعرف شيئا عن هذا الموضوع وأنا هنا ـ في القصر ـ منذ ساعات ..

ثم توقف قليلا ونظرة التشفى واضحة على عينيه قبل أن يقول :

ـ أليست في طريقها الآن الى المانيا .. كما أمرتم يا سيدى القومندان .. لابد أن بابتست قد أطاع الأمر ونفذه بلا تردد ، فقد نقلت اليه ـ بنفسى ـ أوامركم بهذه .. وهو لا يتردد في تنفيذ أوامرى ..

ـ يسعدنى أن تعترف بهذا .. صديقك وشريكك ينفذ تعليماتك .. بل ولا يتردد في تنفيذها .. لقد حاول أن يلحق بالفوهرر العظيم أكبر اهانة اذ يستبدل بفينوس بقرة أخرى ملطخة بالأصباغ .. ولكنه فشل طبعا ..

وفي سخرية تابع وايز حديثه قائلا :

ـ لقد انتهت مسرحيتكم الهزلية أيها الراعى وأسدل الستار عليها .. لو أن صديقك بابتست هذا يستحق ثمن رصاصة لكانت جثته الآن طعاما للديدان .. ولكنه لا يستحق ، وعلى ذلك فسيمضى ما بقى في عمره من أعوام أو أيام في معسكر للاعتقال .

وانحنى وايز في سخرية وهو يقول :

ـ في صحبة الأب راعى ارمورال .

وفي هدوء أجابه الراعى يقول :

ـ سيدى القومندان .. أرجو أن تتأكد من أن البقرة «هيزيت» لا تقل أصالة عن البقرة فينوس ، فهى من سلالة تجرى في عروقها دماء ملكية ..

فقد وايز سيطرته على نفسه وصرخ في وجه الراعي قولا :

ـ اخرس .. لا تهمني سلالاتكم الملكية .. أريد فينوس .. أين فينوس ؟ .

وتمالك وايز أعصابه قليلا وهو يقول :

ـ دارت اليوم أحداث عجيبة ـ تعرفها تماما أيها الأب ـ ولا يخالجني أي شك في أنها كلها مرتبط بعضها ببعض . كما ان العقل المدبر فيها واحد لم يتغير . سينجلي الأمر في خلال ساعات قليلة ، وعندئذ سيتم الفصل الأخير من هذه المسرحية .. واخشى ان ينتهي بكارثة تحقيق بأرموراال .. وعلى ذلك .. فستبقى هنا في القصر ، وستجدني طوع بنانك .. اذا أردت أن تفضي الى بشيء .. في أي وقت .. فالى اللقاء يا سيدي الراعي ..

ـ الى اللقاء يا سيدي القومندان ..

***

توالت طرقات خفيفة على الباب الخارجي لمنزل ليونيل .. فانتفضت نيكول وهمست تقول :

ـ ليونيل .. هل تسمع شيئا ؟ ..

ـ انتظري هنا وسابحث الأمر بنفسي ..

وتقدم ليونيل نحو الباب على اطراف أصابعه ، على حين بقيت نيكول في مكانها بجوار فينوس ، ووصلت الى سمعها أصوات همس ثم فتح الباب .. وأخيرا هدأت أعصاب نيكول حين سمعت ليونيل يقول :

ـ انه صديق باعزيزتي ..

واندفع الفتى جورج الى الداخل ، واتجه الى نيكول وهو يقول ـ وفي صوته رجفة ظاهرة :

ـ مس نيكول .. علمت انك هنا .. انت وفينوس . صديقك كالنتين مورلاند سيأخذني معه الى لندن .. ولكن الخطر يحيق بنا جميعا الآن .. خطر بالغ ...

فقاطعته نيكول تقول في لهفة ظاهرة :

ـ ماذا حدث يا جورج ؟ »

ـ يقوم الالمان بتفتيش كل شبر في الجزيرة بحثا عنك وعن فينوس .. يجب أن تذهبى وبسرعة »

ـ وكيف نفلت منهم ؟ »

واستغرق الطفل في التفكير قليلا ثم قال :

ـ الرقيب فوجل يقود القوة القائمة بالتفتيش ، وهو رجل مخبول يسهل خداعه . سأحمله على الذهاب الى «باى دى اوندين» على حين تسلكين أنت وفينوس طريق «بوان دى جوا» .. هلا أسرعت ياسيدتى ..

ـ سأفعل .. عجل أنت أيضا وعد الينا سريعا ..»

ـ اطمئنى يا سيدتى .. فسرعان ما سنلتقى ..»

الفصل التاسع عشر

في هذا الظرف الطارىء ـ بدا ليونيل فاليز وقد تغيرت طباعه وعاداته ، وتبدلت شخصيته ونفسيته ، وانقلب الى شـــخص مختلف تمام الاختلاف ، فحين تبادلت نيكول الراى مع الـكاهن صباح اليوم ، لم يدر فى ذهنهما ، ولم يكن فى تقـــديرهما ان ليونيل هو الذى ســـيقود البقرة من منزله الى حيث ينتظرهـا القارب .

ـ نيكول .. افتحى باب الحـديقة وانتظرى خروجى ومعى البقرة ثم أعيدى غلقه فى سكون كمـا كان .. أمازال فى الوقت متسع أمامنا ؟

ـ يرتفع المد بعد نصف ساعة تماما .

ـ فلنعتمـــد على الله اذن ـ ولنبـــدأ رحلتنا فورا .. اين ستلتقين بصديقيك ؟

ـ فى الدغل عند منحنى الطريق .

ـ يحسن ان تسبقينى اليهما حتى لا يظنا اننى الرقيب فوجل أو غيره فينصرفا على غير مانشـــتهى .. واذا حدث مايريبك فاندرينى بترديد صوت الضفدع كما كنا نفعل فى طفولتنا .

وانطلقت نيكول تتحسس طريقها فى الظلام فى وثبات تؤمن بها نفسها ومن يتبعها ، وكانت طوال الوقت تجاهد حتى تحتفظ برباطة جأشها وسيطرتها على نفسها وأفعالها وحين وصلت الى منحنى الطريق وقفت فى الظلام وهمست تنادى فالنتين فأسرع هذا اليها وتلقاها بين يديه وهو يقول :

ـ شكرا لله على فضله .. لماذا كان تاخيرك هذا ؟

فاشرق وجهها وهى تقول :

ـ وهل كنت أتأخر عنكما مهما كانت الظروف .. يؤسفنى ان اقول أن أحداثا تجرى فى الجزيرة ، وأن خطوتنا حتى الآن غير مأمونة .. فالالمان يشكون فى أن شيئا ما وشيك الوقوع وانهم يعلمون اننى هنا فى الجزيرة .. ولكننا ولا شك سنتابع الى النهاية .. ليونيل ابن عمى ـ قادم مع فينوس وسيكون هنا بعد لحظات قليلة ..

وتوقفت قليلا قبل أن تقول :

ـ أخشى أننا سنواجه الكثير من المتاعب الليلة .

ـ لايهم ، فى مقدورى أنا والكس أن نتعامل مع الحراس ، ولن يصل القومندان ورجاله الينا بأى حال ، فستلهيهم الفرقعات

ـ فاتنى أن أقول أن الفتى جورج ذهب الى الرقيب فوجل ليخبره أنه شاهدنا عند «باى دى لوند ن» كمحاولة لتضليله عنا ، أتظن أنه سيفلح ؟

ـ الرقيب فوجل أم جورج ؟

ـ جورج بلا شك .

ـ انه شيطان فى ثياب طفل .

وتوقفا عن الحديث حين تنبها الى وقع حوافر الدابة على العشب الجاف ، وفى لحظات كان ليونيل يقف معهم وما ان تم التعارف بينهم حتى سأله فالنتين قائلا :

ـ كيف حال فينوس ؟

ـ على خير حال ، ولكننى أخشى اننا سنواجه المشكلة بعد لحظات ، فسرعان ماسنستقبل مسافرا جديدا يصحبنا فى رحلتنا .

ـ هل نجد مكانا مناسبا لها بالقرب منا .

ـ نعم . هناك مظلة على بعد حوالى مائة ياردة .

ـ فلنسرع الآن اذن ..

وفى هذه اللحظات كانت فينوس قد رقدت على جانبها فوق العشب ، وبدات الجزيرة تستقبل مولودا جديدا .

***

كانت الداورية الالمانية متجهة نحو منزل كاهن اومورال ، وعند السياج الخلفى للحديقة لمح الرقيب فوجل ـ قائد الداورية ـ وجها صغيرا يختفى خلف السياج .

وامام باب الدار توقفت الداورية وطرق الرقيب الباب وحين افتحته زوجة الراعى بادرها يقول بصوت جاف :

ـ لدى تعليمات بتفتيش المنزل .

ولم ينتظر فوجل هو ورجاله ، واندفعوا الى الداخل يبحثون وينقبون .

وفى بهو المنزل ، بجوار الموقد ، راى فوجل الطفل جورج يجلس فى هدوء وهو يقلب صفحات احدى المجلات الهزلية ، فبادره يقول :

ـ منذ متى وانت هنا ايها الرجل الصغير ؟

ـ منذ اعلان حظر «التجول» .

فابتسم فوجل وهو يقول مداعبا الطفل :

ـ يا لك من فتى مطيع .. اذن فانت هنا منذ أعلن حظر « التجول » ؟

ـ ليس ذلك تماما ..

ـ اذن أين كنت ؟

ـ فى الحديقة .

ـ فى الحديقة فقط ، ألم تذهب الى اى مكان آخر ؟

ـ وهل تظننى أذهب الى اى مكان آخر .. هل انا ممن يضيعون الوقت سدى مثلما يفعل البعض .

ـ من تعنى يا بنى ؟

ـ انت مثلا .. تضيع وقتك هنـا عبثا فى البحث عن سيدة جميلة .. لن تجدها هنا .

فاتسعت حـدقتا الرقيب ، ومال نحو الطفل فى هدوء وهو يقول :

ـ كيف تبادر الى ذهنك ياصديقى أننا نبحث عن سيدة ؟

ـ كيف ؟ انت لا تعرفنى اذن .. جورج الذى يعرف الكثير ..

ـ نعم .. نعم .. تعرف الـكثير بلا شك . هل فى مقدورك اذن ان تخبرنى أين اجدها ..

ـ بلا شك .. انها هناك عند «باى دى لوندين» ..

ـ يا لك من طفل ذكى شجاع .. هل تصحبنى اليها ؟

ـ أنا . لا . يجب أن أتناول عشائى الآن .. لمـاذا لا تذهب بمفردك .. ستجد هذه السيدة هناك .. بلا شك ..

ـ نعم سأذهب بلا شك .

وفى هذه اللحظة تقدم أحد الجنود يدعو فوجل لأمر هام .. فذهب معه الى حيث أرشده الى صرة صغيرة فى حجرة النوم ، وجد فوجـل بداخلها بعض المـلابس الداخلية النظيفة وسروالا وقميصا وكيسا من الورق بداخله بعض شطائر الجبن واللحوم ، ومسدسا صغيرا مما يلهو به الأطفال .. وفى عناية أعاد فوجـل ربط الصرة كما كانت وغادر الحجرة واتجه نحو الطفل يقول :

ـ اسنذهب الآن الى «باى دى اوندين» واذا لم نجد السيدة هناك فساعود اليك واقضم اذنيك .

ـ تأكد انك ستلقاها هناك .. وعلى كل فستجدنى هنا فى أى وقت .

وحين غادر فوجل ورجاله المنزل اتجه الى مساعده يقول :

ـ سنتقدم الآن من هذا الطريق فى اتجاه «باى دى أوندين» ساتركم بعد قليل واعود الى هنا فى انتظار صديقنا الصغير ..

اقلا يخالجنى اى شك فى انه سيقودنا الى السيدة التى نبحث عنها ..

وتحركت الداورية .. ومن خلف النافذة كان جورج يتابعها بانظاره . وما ان اختفت فى الظلام وانقطع صوت اقدام الجنود حتى أسرع جورج الى حجرة النوم والتقط حاجاته وغادر المنزل الى الحديقة وعند بابها الخلفى وقف ينصت ويرقب المنطقة فى حذر حتى اطمأن الى خلو الطريق ثم بدأ رحلته الى «بوان دى جوا» وهو يشعر بالزهو والفخار .. والسعادة ...

وفى حذر وحرص خرج فوجل من مكمنه .. وتقدم خلف جورج وسلاحه فى يده على أهبه الاستعداد ...

***

اندفع جورج نحو نيكول .. وفى نشوة وزهو توجه اليها بالحديث يقول :

ـ لقد فعلت ماوعدتك به تماما .. نجحت فى خداع الرقيب افوجل ودفعه نحو «باى دى اوندى» يا له من غبى مغرور ..

واستدار الطفل بأنظاره نحو فالنتين وهو يقول :

ـ أهذا صديقك الذى شاهدته فى الصباح ؟

ـ نعم .. واسمه اليكس ..

ـ مسيو الكس .. يسعدنى أن التقى بك .. اسمى جورج وسأذهب معكم الى لندن .

ـ سيكون هذا من دواعى سرورى ..

واستدار الطفل نحو ليونيل يقول :

ـ أستذهب انت ايضا ؟

وهنا علا صوت أجش ـ بدد سكون الليل ، واثار الذعر فى قلوب الجماعة الصغيرة وهو يقول :

ـ كلا مستر فاليز لن يذهب الى لندن ، بل لن يذهب اى منكم

الى لندن أو غير لندن ؟ استديروا نحو الحائط جميعـا وارفعوا الأيدى .. واذا بدرت منكم أية بادرة فسأطلق النار فى الحال »

***

كان ترولر لانجلى يقف على ظهر الناقلة البحرية ـ الى جوار وبانها ـ يرشده الى المـكان الذى ستقف فيه .

ومن مؤخرة الناقلة كان يأتيهم صوت البحار الذى كان يقوم بقياس العمق ، وحين أشار الى انه قد بلغ ثلاثة أمتار أمر الربان بايقاف الآلات وبقيت الناقلة تأخذ طريقها نحو الشاطىء ، بقوة الدفع التى كانت عليها ، وبتأثير الموج الذى كان يحملها حملا نحو الشاطىء ..

وحين توقفت الناقلة تماما ، غادرها لانجلى فى صدون واتجه الى الشاطىء .

الفصل العشرون

استند الرقيب فوجل على جانب الدغل وهو يقول :

ـ اذن فقد وجدنا كل ماكنا نبحث عنه .. السيدة الجميلة التى يسمونها مس فاليز .. «والفنان» الذى يقولون انه ابن عمها والبقرة فينوس .. التى حاولوا أن يضللونا بغيرها .. والطفل الذى اعتقد انه سينال متا ويخدعنا ..

وفى سخرية مرة تابع فوجل حديثه يقول :

ـ هر فاليز . . الن تقدمنا الى هذين السيدين الغريبين ..

ـ «مستر » . . وليس « هر »

واذ بدءوا يستديرون نحوه يحادثونه ويسخرون منه ، صرخ اليهم يأمرهم بالعـــودة نحو الحائط ويحذرهم الحديث معه أو فيما بينهم .. وتقدم فوجل يجردهم من سلاحهم ويلقى به بعيدا عنهم .. واذ وقعت عيناه على سلاح الطفل المعلق فى وسطه توقف يمعن فى الفكر قليلا ، ثم قال :

ـ تقديرا منى لشجاعة هذا الطفل ، ساترك له لعبته هذه .. والآن ، وقد جردتم من سلاحكم ، ففى مقدوركم الاستدارة نحوى اذا حافظتم على رفع الأيدى فوق الرؤوس .

واتجه فوجل بأنظاره الى ليونيل فاليز وهو يقول :

ـ هر فاليز .. سيكون بيننا حديث شائق .

ـ قلت اننى «مستر» ولست « هرا » ..

ـ حسنا .. من هذه اللحظة ، حتى اللحظة التى سأراك فيها تتلقى بصدرك رصاص الجنود .. سأناديك بمستر ..

ثم علت ضحكته وهو يقول في سخرية ؟

ـ اتظنون انني ساقودكم الى القيادة الآن وسط هذا الظلام الحالك .. هذه أمنيتكم التي تحلمون بها ولاشك حتى تتمكنوا من الهرب .. لست على هـذا القدر من الغباوة ، ستبقون هنا حتى يأتي أفراد الداورية ، وانني احـذركم اية محاولة قد تقـدمون عليها ..

ـ هل تستطيع مس فاليز والطفل ان يخفضا ذراعيهما ؟

ـ لا ...

وبدا صوت فالنتين باردا كالثلج وهو يقول :

ـ من المخجل ان جنديا مسلحا من جنود الرايخ العظيم ـ كما يقولون ـ يخاف امرأة عزلاء من أي سلاح وطفلا يحمل لعبة على شكل مسدس ..

وبقي فوجل على عنـاده لحظات قبل أن يتراجع عن موقفـه ويقول :

ـ لمس نيكول والطفل فقط أن يخفضا ذراعيهما ، ولـكنني أحذركم جميعا اية حركة .

فأجابه فالنتين في سخرية مرة يقول :

ـ لاشك انك ستنال ترقية استثنائية على هذا العمل البطولي ولـكنني أعترف ان هنـاك ما يحول بينك وبين الترقي الى رتبة الملازم ..

فصرخ فوجل يأمره بالسكوت ويحذره التمادي ..

ولكن فالنتين لم يتوقف ، بل تابع حديثه يقول :

ـ لو كنت من جنود العاصفة .. لاختلف الأمر ..

***

كان الكابتن وايز يجلس في صالون قصر الحاكم على أحـد المقاعد الوثيرة ، وفي فمه سيجار احترق نصفه ، وفي يده كأس من النبيـذ شبه فارغة والى يمينه آلة تسجيل يستمع منها الى مقطوعة موسيقية محببة الى قلبه .

وامعن فى النظر قليلا فى ساعتـــه ثم رفع عينيه قليلا نحو اللازم مولر وقال :

ـ لقد تجاوزت الساعة الآن العاشرة .. هل من اخبار جديدة من الرقيب فوجل ؟

ـ لا يا سيدى ..

ـ انه لأمر غريب ..

وتوقف قليلا قبل ان يقول :

ـ مولر .. اتعرف فيم افـكر ؟

ـ فيم تفكر يا سيدى ؟

ـ أعتقد ان مس فاليز هذه ارسلها الانجليز الى الجزيرة فى مهمة قصيرة .. فليس من المعقول أن تتوقع أن يبقى امرها مخفيا عنا فترة طويلة .

وانتفض وايز فجأة وهو يقول :

ـ لذا فلابد انهم قـد دبروا أمر عودتها ثانية الى انجلترا .. وما من وسيلة امامها سوى .. البحر ، ولهذا فسيرسل الانجليز لها احدى سفنهم .

وابتسم وايز .. وهو يرفع كأسه نحو شفتيه ويقول :

ـ فلنشرب اذن نخب هذه السفينة ، التى ستنتظرها لوبوك على أحر من الجمر ..

ـ ولـكن ..

فقاطعه وايز يقول :

ـ لقد فكرت فى الأمر من جميع نواحيه ، لا تخش شيئا فلن يرسلوا سوى سفينة صغيرة .. فمـا من سفينة كبيرة تستطيع الاقتراب من شواطىء الجزيرة الضحلة ، ولا اعتقد انهم تنبهوا الى وجود لوبوك .. ولـكننى لا اظنهم يهملون أمر الحراســة القوية الواجبة لمنطقة مثل منطقة الميناء .. فما من قائد يفوته هذا .

وتوقف قليلا قبل أن يقول :

ـ مولر .. لا اريد اغراق هذه السفينة .. اريد الاستيلاء عليها .. والقبض على من فيها احياء ، ولهذا .. امرت الا تفتح النيران على السفينة ، وان تترك حتى تقع فى الكمين المعد لها »

ـ واذا قاومت السفينة وطاقمها ..

ـ لا مفر ـ حينئذ ـ من تدميرها .. واغراقها بمن عليها »

واستغرق وايز فى التفكير قبل أن يقول :

ـ الامر الذى مازال يشغل تفكيرى والذى لم أستطع الوصول الى تعليـــل معقول له حتى الآن .. هو الدافع الذى يحمل مس فاليز على العودة الى الجزيرة .. ودخول عرين الاسد بمثل هذه الجرأة .

ورفع كابتن وايز سماعة التليفون وطلب الاتصال بقائد المدمرة ليؤكد عليه ـ للمرة العشرين هذا المساء ـ أن يكون على أهبـــة الاستعداد للحدث المتوقع وأن ينفذ تماما ما اصدره له من تعليمات وأن يتجنب اصابة الباخرة الانجليزية .. ما لم تبد مقاومة يرى فيها خطورة على المدمرة .. أو الجزيرة .

ووضع وايز سماعة التليفون .. وتنهد فى ارتياح وهو يقول موجها حديثه الى مساعده مولر :

ـ ما علينا الآن سوى .. الانتظار »

وفى هذه اللحظة كانت عقارب الساعة تشير الى النصف بعد العاشرة ـ وكان هذا هو الوقت الذى حدده فالنتين موعدا لانفجار قنبلته الأولى التى دفنهـــا فى «ميرميد باى» قرب الساحل .. تتلوها بعد لحظـات ـ قنبلة ثانية .. وثالثة .. ويشتعل معها حشد من السهام النارية .

وحين دوت أصوات الانفجارات ـ تهز أرجاء الجزيرة أصـــاب وايز ومولر ذهول مفاجىء وحين أفاقا الى نفسيهما انطلقا يعدوان الى الخارج ، فى محاولة لتعرف حقيقـــة الموقف ، والعمل على مواجهته بما تمليه عليهما واجباتهما .

***

وفى منطقة بعيدة من الجزيرة ـ كان يدور حديث آخر بين الرقيب فوجل وفالنتين ونيكول .. حين حاولت نيكول أن تقترب من البقرة لترعاها وترعى مولودهـــا فمنعها فوجل فى قسوة وخشونة ..

وتشعب الحديث بينهـم .. كل يعمـــل على كسب الوقت والسيطرة على الموقف ، فالنتين ينتظر لحظة الانفجارات المترقبة وفوجل يتوقع وصول باقى أفراد الداورية ..

ولمـا كانت الأمنية التى تمناهـــا فالنتين ونيكول فى الليلة السابقة .. مازالت تؤتى ثمارها حتى اللحظة ، ولمـا كان الحظ مازال حليفهما .. فقد دوت الانفجـارات مؤكدة انتصارها فى السباق العنيف الذى كان بينهما وبين موعد وصول الداورية .

وحين دوت أصوات الانفجارات اليه هادرة .. أدار الرقيب فوجل رأسه بسرعة نحو مصدر الصوت ، وكانت هذه اللحظات المفاجئة لفوجل .. هى ما كان فالنتين يأمله وينتظره ، وسرعان ما استغلهما حتى يملك زمام الموقف ويجرد فوجـل من سـلاحه تماما .. وتعود اليه السيادة والسيطرة ، وان كان ليونيل قـد سبقه قليلا ، حين وجه لطمة قوية بيده الى وجـــه فوجل .. اخر بعدها

الفصل الحادى والعشرون

كان الكاهن ـ راعى أرمورال ـ يجلس على مقعده فى أحدى حجرات القصر ، وقد أستغرق فى تفكير عميق ، على حين أصابع يديه تعبث بقبعته المستديرة ـ فى حركة لا ارادية ـ وعيناه تحدقان فى سقف الحجرة ، كما لو أنهما كانتا تسيحان مع أفكاره ٠

وانتفض الكاهن فجأة على أصوات الانفجارات التى مزقت سكون الليل وهزت أرجاء الجزيرة وحين تمالك نفسه ٠٠ امتدت أصابع يديه ترفع ساعته الفضية من جيب صديره ، ثم أنعم النظر فيها قليلا ، وبدت على وجهه علامات الرضى والارتياح ٠٠ قبل أن يعيدها ثانية الى مكانها ٠٠

ولم تمض لحظات حتى سمع وقع الأقدام التى كانت تهرول مسرعة فى أنحاء القصر تتخطى درجات سلمه قفزا وتتلاشى كلها أو تكاد تضيع فى صوت الكابتن وايز المنطلق فى ثورة وغضب يحمل أوامره وتعليماته لمساعديه وجنوده ٠٠

وكان الاندفاع والخوف والقلق والحيرة ، الذى انعكس على الجنود فى أبهاء القصر وحجراته المختلفة ، ينعكس أيضا ـ بصورة مصغرة ـ داخل نفس الحجرة التى كان الراعى معتقلا فيها ، فقد أصاب الجندى المكلف حراسته ٠٠ ما أصاب زملاءه فى الخارج ، فأسرع يشهر سلاحه ثم تقدم نحو الباب ٠٠ وتوقف ينصت قليلا، ثم انطلق نحو النافذة يحاول أن يرى شيئا ٠٠ ثم أسرع نحو الرجل المسن الجالس على مقعده فى هدوء وسكون ، ثم عاد الى الباب وفتحه وما أن خطا خطوات الى الخارج حتى أسرع عائدا وأغلق الباب خلفه ، كان مرتبكا ٠٠ حائرا ٠٠ لا يدرى أيبقى فى مكانه ، أم يسرع نحو رفاقه ، لقد صاح القومندان يأمر الحرس بالخروج ٠

وكان هو أحد أفراد هذا الحرس ، ولكنه كان قد أمر بمراقبة هذا الكاهن و«التحفظ» عليه . ولكن ماذا فى مقدور هذا الرجل المسن أن يفعل ، وماذا يخشاه منه ، على الجندى أن يطيع الأمر الأخير دائما .. نعم .. هذا هو ما يجب عليه أن يفعله .. واذ استقر أخيرا على أمر ، أسرع نحو الراعى يقول :

ـ عليك بالبقاء هنا ، لا تغادر الحجرة .. أهذا واضح ..؟

ـ نعم ..

ـ ابق هنا وسأعود ثانية .. بعد قليل ..

ـ لقد سمعت ما قلته .. اذهب ولا تخش شيئا ..

وفى هذه اللحظة علا صوت قائد الحرس ينادى أفراده ويهدد المتأخرين منهم بأشد العقوبات ، فابتسم الراعى وهو يقول :

ـ يحسن أن تسرع يا ولدى ، حتى لا يصيبك أذاه ..

***

ـ ليونيل .. أبخير أنت ؟

ـ نعم .. أظن ذلك ..

قالها وهو يدلك ما أصاب معصمه من رضوض وسرعان ما جفل وهو يقول :

ـ يؤسفنى أن أضطررت الى ايذائه بهذه القسوة ..

ـ هذا أبسط مما كان يفعله هو .. لو أنه كان فى مكانك ..

ثم استدارت تسأل الكس .. الذى كان يحكم وثاق فوجل بحبل رفيع كان معه ..

ـ هل أصابته شديدة ؟

ـ « كمدات » شديدة فى أسفل الفك ..

وما أن أحكم وثاقه حتى بادره يقول :

لو علا صوتك .. فستنال من هـذا السيد لطمة أخـرى .. أقوى وأشد ، تخرسك الى الأبد .. وما من أحد هنا يريد لك هذه النهاية ..

ـ سنأخذه معنا ، ولا شك أن رحلة البحر ستعيد اليه رشده ..

وقدم الفتى جورج وفى لهفة ظاهرة أخبر القوم بوجود حارس

جديد على الربوة القريبة من « بوان دى جوا » والتى لا تبعد عنهم كثيرا ، وحين سأله فالنتين هل فى مقدوره أن يراوغه وأن يفلت منه ، صاح الطفل فى حمية وحماس يقول :

ـ بلا شك .. أستطيع هذا وأكثر منه ، كما أن الرجل صديقى .. ويدعى جوهان .

ـ اذن عجل يا بنى .. وستجد فى ثنايا صخور « بوان دى جوا » ناقلة بحرية صغيرة ورجلا له لحية كثة سوداء الشعر .. خبره أننا قادمون .. وأننا ـ جميعا ـ فى طريقنا اليه ..

ثم استدار فالنتين نحو الك يقول :

ـ هل قطعت الاتصال التليفونى بين الحارس والقصر ..؟

ـ نعم ..

ـ جميل .. انطلق اذن يا جورج .. وبعد أن تقابل صديقنا عد ثانية الى الحارس واعمل على أن تشغله عنا حتى نتجاوزه تماما ..

واتجه فالنتين بحديثه نحو نيكول يقول :

ـ متى تستطيع فينوس السير ..؟

ـ الآن .. اذا تمهلنا قليلا فى السير ، واذا حملت مولودها فستتبعنا بلا توقف ..

ـ ولكنه حمل ثقيل عليك ..

فضحكت نيكول فى نشوة وهى تقول :

ـ ليس كما تقول تماما ، كما أننى سأكون سعيدة بحمله ..

ـ اذن فلنستعد للسير فورا ، وعليك يا الك أن تهتم بأمر فوجل .. اذا بدرت منه بادرة أد واجبك بلا تردد ، ويحسن أن تكون الاصابة فى القلب مباشرة ..

ـ اتسمع هذا أيها الرقيب ، أم انك لا تتلقى الأوامر الا من قائدك المخبول ..

وكان جورج قد اختفى تماما فى الظلام حين رفعت نيكول ـ

بمساعدة فالنتين ـ المولود الصغير واحتضنته بين ذراعيها ، وتقدمت الجماعة ..

وما أن شعرت البقرة « فينوس » بمولودها يحمل بعيدا عنها حتى أسرعت تقف على أقدامها وتسير خلف نيكول ..

وخلف البقرة بدأ الرقيب فوجل يتقدم ـ وفوهة سلاح الرقيب ألكسندر ملتصقة فى ظهره ـ وفى صوت وأهن ضعيف همس يقول :

ـ الى أين ستذهبون بى ..؟

ـ الى لندن .. سنقدمك الى صديق عزيز يدعى « العم جورج » ، سيسعده بلا شك أن يتعرف بك وأن يستمع اليك ..

***

وسلك جورج طريقا ملتويا حتى تجاوز الحارس وانطلق نحو الشاطىء الصخرى يبحث عن القافلة وعن الرجل الملتحى ..

وعلى صوت النداء الهامس ، خرج ترولر لانجلى من مخبئه وسلاحه فى يده ، وحين رآه الطفل همس يقول :

ـ معذرة يا سيدى ، ألك لحية كثة سوداء .. ؟

ـ نعم يا بنى وأنت ألك بقرة تنتظر مولودا .. ؟

فأسرع جورج يندفع عن ترولر ويقول :

ـ هل أنت مستر ترولر ..؟

ـ ألا ترى لحيتى .. من تظننى اذن ..هل جئت وحدك ؟ أين الرائد مورلاند ومس نيكول و ...

وقاطعه الطفل يقول :

ـ انهم جميعا قادمون .. سبعة ..

ـ سبعة ..!!

ـ نعم .. سبعة ، خمسة من الأشداء الاقوياء وطفلان ..

ـ بحق الشيطان .. من هم ..

ـ حين أذكر « الشيطان » يعاقبني جدى ، انه مدروه سيىء الخلق والسمعة .. وتوقف الطفل قليلا قبل أن يقول :

ـ مستر فالنتين ومس نيكول قادمان وبصاحبتهما صديقهما مستر الكس وكذلك الرقيب فوجل ـ وان كان قادما برغم انفه ـ وكذلك ستاتى فينوس ومولودها الذى ولدته منذ ساعة او اقل .. ولا تنسنى يا سيدى ، فاننى قادم معكم ايضا ، وكذلك مستر ليونيل ..

ـ ومن يكون هذا الملعون ايضا ؟ ..

ـ « ملعون » .. انها كلمة مكروهة لا يسمح لى جدى أن أرددها مستر ليونيل ليس كما قلت ، انه ابن عم مس نيكول ، ولقد ضرب الرقيب فوجل بقبضة يده ضربة كادت تطيح بفكيه ، سيدى ارجو الا تذهب .. انتظرنا قسرمان ما سنحضر جميعا ..

ـ وكيف ستحملكم هذه الناقلة ، انتم تحتاجون الى بارجة .. هل يوجد اى المانى بالقرب من هذا المكان ؟ ..

ـ نعم .. هناك احد الحراس على هذه الربوة العالية ..

ـ اذن فساذهب اليه لاحادثه قليلا ..

ـ لا .. ارجو يا سيدى الا تفعل .. انه رجل طيب يلقى رجوهان ، اعطانى ـ منذ ايام ـ سيجارة ادخنها ، ولكننى لم اتحملها وشعرت بالغثيان .. مستر لانجلى .. ارجو أن تنتظر هنا .. فهذا ما قاله مستر فالنتين .. أن تنتظر هنا ..

واستدار ترولر ينظر الى البحر ، فاحس بما وراء الانتظار من اخطار وقدر ما قد يترتب على المجازفة التى سيقوم بها من كوارث .. ومع ذلك فقد قرر أن ينتظر ..

***

بينما الجماعة تسلك طريقها فى صمت وحذر ، همس ليونيل فى اذن فالنتين يقول :

ـ اتعرف انهم اعتقلوا راعى الكنيسة ؟ ..

ـ نعم .. وهذا امر مؤسف ، ولا اعتقد أن فى مقدورهم ادانته بشىء ..

ـ أتظن هذا ؟ ..

وتوقف قليلا قبل أن يتابع حديثه قائلا :

ـ أو تعلم أيضا أن بابتست قد قبض عليه متلبسا .. ومعه البقرة المزيفة .. لا شك أنه يواجه المتاعب الآن .. ولن يكون وحده، فستحيل الكوارث ـ بعد ذهابكم ـ بالكثيرين من سكان الجزيرة أيضا ..

ـ بعد ذهابنا ..!

ـ نعم .. بعد ذهابكم .. لقد عنيت ماقلت تماما ، فلن أذهب معكم ..

ومن ثغرة وسط السحاب الذى كان قد أخذ يتكاثف فى سماء الجزيرة ، أخذ القمر يرسل أشعته الفضية فأزال عن وجه الجزيرة هذا الشحوب الذى كان قد كساها ، وأشرقت معالم وجه ليونيل أمام عينى فالنتين ، فميز عليها بوضوح وجلاء .. آثار ما كان يدور فى قلبه وفى نفسه من صراع نفسى طاحن ..

***

اندفع العريف ـ قائد الحرس ـ المعين فى منطقة « ميرميد باى » نحو الكابتن وايز ـ وقد تقطعت أنفاسه وكاد قلبه يتوقف من طول المسافة التى قطعها عدوا ـ وهو يقول :

ـ لا شىء ياسيدى القومندان .. لاشىء ، مجرد « عبوات » قاسفة أحدث انفجارها هذا الدوى المروع ..

ولم يستطع الكابتن وايز أن يتابع استجواب العريف ولا أن يستوضح منه ما أراده ـ فقد كان هناك من يعدو نحوه عدوا وهو قادم من اتجاه قصر الحاكم ـ يحمل اليه رسالة عاجلة تقول ان الحارس المعين فى منطقة بيتى جوان أبلغ اقتراب سفينة صغيرة من الجزيرة .. وأنه شاهدها تستدير وتتجه نحو «بوان دى جوا» وكانت المفاجأة التالية التى أبرزتها الرسالة أن الاتصال التليفونى مع « بواد دى جوا » قد انقطع ..

وعلا صوت وايز وهو يؤكد أن الأمور تسير كما توقعها تماما ، ويصدر أوامره بتجميع كل القوات فى منطقة « بوان دى جوا » وسرعة اعداد مصباح كاشف على الربوة المشرفة على هذه المنطقة ولم يفته ان يؤكد ضرورة احتلال الجنود لمواقعهم فى سكون كامل ، والا تفتح النيران أو يضاء المصباح الا بأوامر منه شخصيا .

***

وكادت المغامرة تكتمل فصولا ..

كانت الناقلة تتراقص وهى ترقد بين أحضان ميـاه الخليج وتندفع مع الموج كالسكرى ذات اليمين وذات اليسار ، حين وصلت الجماعة الصغيرة الى حيث كانت تنتظرهم .. وحين وقعت أنظار تروار عليهم أسرع نحو نيكول .. والابتسامة ملء وجهه ـ يحييها ويقول :

ـ الى بهذا يا سيدتى ..

ولكنها احتفظت بكنزها بين يديها وأسرعت نحو القـارب ثم استدارت ووقفت تنظر الى فينوس وتدعوها فى صوت رقيق وتشجعها على اتمام هذه الخطوات القليلة الباقية .. واستجابت « فينوس » اخيرا ـ بعد لحظات خوف وتردد ـ فتبعت مولودها ، وتوسطت معه الناقلة ..

ولم تمض ثوان حتى كانوا جميعا فى قلب الناقلة .. فأسرعت تشق طريقها نحو السفينة التى كانت تنتظرها وسط المياه العميقة

وتم كل هذا فى اللحظة التى بدأت فيها الأحداث تتوالى مسرعة فقد علا صوت يحذر ركاب الناقلة ويأمرهم بالعودة ، وانبعث ضوء الكاشف الكهربى يبدد الظلام الذى اختفت فيه الناقلة .. وعلى ضوء الكاشف رأى الكابتن وايز الناقلة تتابع طريقها نحـو السفينة بلا توقف .. ومن منظاره المعظم شاهد فتاة تتوسط الناقلة تقف الى جوار بقرة .. والى يمينها كان يقف رجل كثيف اللحية يلوح بيديه مهددا ، وفى الجانب الآخر شاهد جنديا يرتدى زى الجنود الالمان يقف وسط رجلين وطفل ..

وما أن وصلت الناقلة الى جوار السفينة حتى تدلت منها رافعة قوية حملت الناقلة بمن عليها .. الى ظهر السفينة ..

وصرخ الملازم مولر يطلب الاذن بفتح النيران فأمره الكابتن وايز بالانتظار وهو يقول :

ـ سرعان ما ستصل المدمرة لوبوك ..

وفى هذه اللحظة كان ربان السفينة قد أخذ اهبته للانطلاق ونادى مساعده يقول :

ـ هل ركبوا جميعا ..؟

ـ نعم ياسيدى .. جميعا ..»

واستدارت نيكول تبحث فيما حولها واتجهت نحو فالنتين تقول :

ـ أين ليونيل ؟ »

ـ لم يأت .. فقد فضل البقاء فى الجزيرة .. ليواجه مع أهلها ما سيصبه الالمان عليهم من بلاء وويل ..

واستدار نحوها يلتقط يديها بين يديه ويقول :

ـ ألا ترين أنه قد فعل ما يمليه عليه واجبه نحو أهله وعشيرته

ـ بلى .. لقد أثبت انه حقيقة من أسرة فاليز ..»

***

وحين شاهد الكابتن وايز السفينة وقد بدأت تتحرك . أمر بفتح دفعة واحدة من نيران رشاش الماكينة فى اتجاه السفينة . وسرعان ما تساقطت الطلقات قريبة من السفينة دون أن تصل اليها فقد كانت قد انطلقت مبتعدة ..

وصرخ وايز يأمر مساعده بضبط المسافة وفتح النيران من جديد دفعة واحدة اخرى .. ولكنه أسرع يأمره بالتوقف حين شاهد المدمرة لوبوك . تشق طريقها مسرعة نحو السفينة ، وحين شاهدها من كانوا على ظهر السفينة ، تملكهم اليأس وهم يرون كل آمالهم تنهار ، وجهودهم تضيع هباء .. فاتجهوا بكل حواسهم الى السماء يسألون أن تتدخل يد الله القوية .. الرحيمة ، وأن تنقذهم من هذا المأزق الذى يحيط بهم وأن تجنبهم الوقوع فى أيدى الالمان ..

وكانت السماء ــ كعهدهم بها ــ رحيمة شفيقة .. فسرعان ما عاد الأمل الى نفوسهم وحلت السكينة فى قلوبهم وهم يسمعون الصوت الهادر الذى مرق فوق رءوسهم يمزق سكون الليل وينزل الرعب فى قلوب الطغاة ..

ومن وسط السحاب .. انـدفعت مجموعة من خمس طائرات وغمرت بنيران رشاشاتها ظهر المدمرة ثم انطلقت تندفع مبتعدة ، واختفت وسط السحب لحظات ثم عادت ــ الواحدة تلوها الأخرى تندفع فى سرعة خاطفة لتلقى ما تحمله من مقجرات فوق سطحها ؛ وتتساقط القنابل كرذاذ المطر فوق المدمرة وحولها ، وتتوالى الانفجارات فوق السطح ، وتهتز المدمرة وتتمايل فى عنف وشدة . لا تدرى الى اى جانب تميل ، حتى تتخذ قرارها الأخير .. فيزداد ميلها نحو الجانب الأيمن .. ولا تمضى لحظات معدودة حتى تكون نهايتها قد سطرت فى قائمة خسائر الحرب الفادحة .

الفصل الثانى والعشرون

اتجه الكابتن وايز ـ فى تثاقل وكآبة بالغين ـ نحو منزل ليونيل فاليز ، وبغل وغيظ دفع الباب بقدمه فانفتح على مصراعيه ، وتابع سيره نحو الداخل ..

وفى الحجرة التى كان ليونيل قد أعدها مرسما له ـ التقى وايز بليونيل .. وكان يقف أمام احدى لوحاته فى هدوء ورباطة جأش ، «وفرشاته» فى يده يضفى بها بعض اللمسات على لوحته . وحين توقف الكابتن وايز على بعد خطوات منه ، استدار ليونيل برأسه قليلا وهو يقول :

ـ أسعدت صباحا ياسيدى القومندان »

واذ لم يتلق ردا على هذه التحية ، تابع عمله فى سكون » ومضت دقائق كانت تبدو ثقيلة طاحنة ، قبل ان يخطو ليونيل خطوة الى الخلف وينحنى براسه قليلا وهو يمعن فى النظر الى لوحته من زواياها المختلفة ، ثم يتوقف ويضع « فرشاته » وأدواته على المنضدة القريبة ويستدير نحو وايز .. وفى براءة وبساطة يقول :

ـ كنت اعمل فى هذه اللوحة منذ فترة طويلة .. اسمها « الكوبرى » .. ويسعدنى انك لم تشرفنى بزيارتك قبل ان انهى عملى فيها »

وحاول وايز أن يتمالك اعصابه ، وأن يتظاهر بالهدوء والسكينة ـ كما كان ليونيل يفعل ـ ثم قال :

ـ ليس تماما .. اتدرى ماذا حدث الليلة ؟

ـ ليس تماما .. كل ما اعرفه انهم وصلوا الى الناقلة »

ـ الا تعلم أن الطائرات قد اغرقت المدمرة لوبوك ؟ »

فتظاهر ليونيل بالأسى والاسف وهو يقول :

ـ أحقيقة ما تقول ؟ انها لخسارة فادحة ! هل غرق او اصيب اى من البحارة ؟

ـ لقـــد التقطنا جثث سبعة من الجنود وضابطين ولا ندرى مصير الآخرين .

ـ كم يؤسفنى هذا .. ارجو ان تثق بما أقول يا سيدى .. فلست ممن يميلون الى العنف .

وجالت أنظار الـكابتن وايز فى أنحاء المرسم وشاهـد روث البقرة وسط ما تخلف عنها من ماء وبقايا طعام فتملكته الدهشة واستدار يواجه ليونيل ويقول :

ـ اذن فقد كانت فينوس تختفى هنا .

ـ نعم . لقد جئنا بها الى هنا ، أنا .. وابنة عمى نيكول .. نعم .. أنا ونيكول فقط ، وليس لاى مخلوق آخر اى دخل فى هذا الأمر ، يجب أن تعـرف هـذا تماما ، وأن تثق بما أقول : ليس للراعى أو لبابسنت .. أو لجين .. أو أى شخص آخر من سكان الجزيرة .. اية صلة بكل هذا الذى حدث .. صحيح أن الطفل جورج .. حفيد الراعى .. كان له دور معنا ولـكنه غادر الجزيرة مع نيكول ورفاقها .

وبصعوبة تمالك وايز نفسه وكظم غيظه وهو يقول :

ـ اتريد أن أصدق انك وحدك المسئول عن كل هذا ؟

ـ نعم . من بين أهل الجزيرة المقيمين فيها الآن .. أنا وحدى المسئول .

ـ مستر فاليز .. لمـاذا لم تصحبهم الى لندن ؟

ـ كان من المحتم ان يبقى هنا من يوضح لك الموقف ويذكر لك الحقيقة .. حتى لا يتحمل سكان الجزيرة وحدهم مغبة ما حدث وهم لا ناقة لهم فى الأمر ولا جمل .. هذه طبيعة الحرب ياسيدى لا ينـــال المذنبون ابدا جزاءهم .. بل الأبرياء هم الذين يتحملون

وحدهم ويقاسون ، ويحدث هذا دائما ، حين يفقد الناس ايمانهم بالله وبالسلام وبالانسانية ويسعون خلف الشيطان يشبعون رغبته في سفك الدماء وخراب الدور والديار .

ويقي وايز واقفا في مكانه حائرا مشدوها وفي ذهنه دوامة تعصف به .. ها هو ذا يرى نفسه .. بعد أن نال رتبة الكابتن وشرف الخدمة في آلاى البانزر التاسع ، واختير حاكما مطلقا على ارمورال لكفايته وقدرته وشجاعته وبسالته .. يقف الآن ينتظر مصيره ، هل هنـــاك مصير آخر سوى التجريد من رتبته العسكرية والطرد من الخدمة ان لم يقدم للمحاكمة أمام مجلس عسكرى عال .. وكذلك يقف ليونيل فاليز .. الرجل البسيط الصادق الذى ينتظره مصير رهيب على أيدى رجال الجستابو .. ما املهما في الحياة بعد الآن ، ماذا ينتظر وايز من الالمان وهو خير من يعرفهم ، وماذا يتوقع منهم هذا الغريب عنهم ، هل هناك سوى العذاب والموت .

وانتفض فجأة ، حين بدرت الى ذهنـــه وسيلة الخلاص ، امســتدار نحو ليونيل يدعوه الى النـــافذة ويطلب منـــه ان يرقب الطريق في حرص وعناية .

كان ليونيل ـ في طفولته وشبابه ـ يخاف الموت ويخشاه ، حتى أصبح هذا الشعور هو العامل المسيطر دائما على كل اموره وتصرفاته .

ولكنه الآن .. برغم انه على ثقة تامة من ان الموت يتربص به وأنه سيلاقيه لا محالة اليوم او في الغد او بعد قليل .. فقد توجه نحو النافذة وهو ينظر الى الأمام فقط ، حيث يرى ما في الجزيرة من جمال ويشاهد المعالم التي امتزجت في ذهنه بذكريات طفولته وشبابه وتابع أمواج البحر التي حملت نيكول .. ابنة عمه وحبيبة قلبه وأمله الذى كان يعيش من اجله .

ودقت اجراس ساعة برج الكنيسة ، ودوت طلقات الرصاص وعند النافذة سقط ليونيل وفي وسط الحجرة سقط وايز .

فقد كانَ هـــذا هو الحلّ الذى رأى وايز أن فيه الخلاص له ولهذا الرجل .

***

وأسدل الستار ثانية على الجزيرة ، وطواها الظلام من جديد .

وجاء اليوم الذى حمل معه نسمات الحرية الى سكان جزيرة أرمورال ، وعاد السوزاريان وعادت نيكول .. واجتمع مجلس البلاط ، ولم تمض شهور حتى كان الميدان المواجه لقصر الحاكم قد توسطه نصيب صغير نقشت عليه عبارة « بسيطة » تقول :

« لذكرى ليونيل فاليز .. البطل الشهيد »

الدار القومية للطباعة والنشر

الدار القومية للطباعة والنشر

مركز الإشعاع الثقافي في العالم العربي من القاهرة

يصدر عنها

مذاهب وشخصيات من الشرق والغرب

كتب سياسية

إهدنا للجندي

إهدنا للطال

دراسات اشتراكية

رسائل جامعية

نيويورك

لندن

الجزائر

بيروت

طرابلس

بغداد

الخرطوم

الإسكندرية

القاهرة

مجلة الأزاهر والليمون

مجلة نبأ الوطن

ARAB OBSERVER

L'OBSERVATEUR ARABE

Le Scribe REVUE ARABE

الكاتب مجلة عربية

Der Schreiber

.91
6m

Biblioteca
05404